محاضرة

المفاهيم القرآنية في العلوم الاجتماعية

قاعة رواق المعرفة – مركز الدراسات المعرفية

أ.د. صلاح عبد المتعال* أ.د. علي ليلة د. حنان عبد المجيد*****

الثلاثاء الموافق ١٨/ ٢/ ٢٠٠٩م).

* أستاذ وخبير بالمعهد القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية.

** أستاذ علم الاجتماع – كلية الآداب – جامعة عين شمس.

*** كلية الإعلام – جامعة القاهرة.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

المفاهيم القرآنية في علم الاجتماع

"محاضرة"

إعداد:

دكتورة/ حنان محمد عبد المجيد

صفر ١٤٣٠هـ/ فبراير ٢٠٠٩م

P

m

ارتبط ميلاد علم الاجتماع الكلاسيكي الغربي بتحولات فكرية وسياسية عميقة واكبت مرحلة تفكك المجتمع الإقطاعي ونمو المجتمع البرجوازي, حيث اجتاحت أوروبا في هذا العصر فكرة التقدم بوصفه حتمية تاريخية, ومن ثم تميز الفكر السوسيولوجي في بواكيره بظهور نظريات اجتماعية كثيرة قدمت معالجات متباينة للواقع الاجتماعي, إلا أنها في الغالب اتفقت على تبني فكرة التقدم, وقد ارتبطت مسيرة علم الاجتماع في مراحلها المتوالية بالتحولات الاجتماعية والسياسية الغربية, وانتهى الأمر بتقدم النظريات ذات التوجه الليبرالي على حساب جميع الأيديولوجيات الأخرى وعلى رأسها الماركسية. حيث تميزت التوجهات الليبرالية بالسطوة والسيطرة, وفُرضت الأفكار الليبرالية بوصفها نظريات عالمية تقدم فكراً إنسانياً شاملاً تتكامل من خلاله الثقافات والحضارات المختلفة, وبذلك حظيت هذه التصورات بالصدارة في إطار النظريات السوسيولوجية.

وكان من نتيجة ذلك أن ترسخت لدى بعض المفكرين الغربيين تصورات زائفة بأن الهيمنة الفكرية الغربية حققت انتصارًا نهائيًا أبديًا مما أوحى للمفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما بأن التاريخ وصل نهايته, كما أوحى للمفكر صموئيل هنتنجتون بحتمية اندماج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحضارات الإنسانية تحت لواء الحضارة الغربية المنتصرة حتى إن تحقق ذلك من خلال الصدام بين الحضارات, وفي ظل هذه التصورات باتت وظيفة علماء الاجتماع دعم أفكار العولمة والترويج بأن العالم أصبح قرية صغيرة (ذات صبغة أمريكية), ولهذا ذاعت مصطلحات من قبيل: "العولمة" و"المجتمع الدولي" و"النظام العالمي الجديد" للإيحاء بأن ثمة مجتمعًا عالميًا واحدًا خلافاً للحقيقة التي أشار إليها عالم الاجتماع الفرنسي جورفيتش بقوله: (إنه لا يوجد شيء اسمه المجتمع, بل توجد مجتمعات).

المثير أن المقولات النظرية التي تبنت أفكار العولمة في الغرب لم تثبت على أرض الواقع كثيراً, حيث بدأت تتهاوى وتنهار علميًا وعمليًا.* لكنها لاقت رواجًا بين بعض علماء الاجتماع في العالم العربي فسارعوا إلى دعم فكرة الاندماج مع العالم الجديد, ورأى أحد مؤيدي تلك الفكرة أن تحقيق الاندماج يتطلب رؤية جديدة لمفاهيم قديمة فقدت فاعليتها في بناء جسور التواصل مع الثقافة العالمية, على أساسٍ من أن الجهد النظري نحو إطار إسلامي نظري وعملي يتحدد بتحديات خلق الإطار في ظل منافسة عالمية.(١)

وبهذا ظهرت محاولات للربط بين فكرة الاندماج والتواصل مع ما يسمى (الثقافة العالمية) وبين الدعوة إلى إعادة صياغة المفاهيم الإسلامية برؤية جديدة, بحجة أن العالم أصبح محكوماً بثقافة واحدة, مما يوحي بأن الخصوصية الثقافية لمجتمعات العالم المختلفة قد تلاشت وأن على المجتمعات الإسلامية أن تقبل بذلك الطرح وما عليها إلا أن تعمل على التكيُف مع الواقع العالمي الجديد حتى لا توصف بالتخلف والرجعية, وقد يُفهم من ذلك أن المقصود بالرؤية الجديدة للمفاهيم القديمة لا يتعدى كونَه تحريفاً وتحويراً ومسخاً للمفاهيم الإسلامية بحجة أنها فقدت فاعليتها, وهو في النهاية لا يؤدي إلا إلى إنتاج إطار إسلامي تابع ومشوه بغية الانسجام مع الثقافة الغربية التي تسمى خطأً بالعالمية, وهذا بالطبع ليس مطلبًا علميًا, ولا يتلاءم مع جهود بناء المفاهيم السوسيولوجية على أساس مرجعية قرآنية. وقد سبق لعالم الاجتماع الإيراني "علي شريعتي" تأكيد ذلك بالقول: "إن تقليد نظريات علماء الاجتماع الغربيين وأحكامهم وترجمتها وتحليلها على الواقع الموجود في مجتمعاتنا الإسلامية مرفوض وغير علمي ومضاد لعلم الاجتماع".(٢)

---

* تكاد مزاعم العولمة تلفظ أنفاسها الأخيرة في أعقاب أزمة الركود الاقتصادي العالمي التي أُعلن عنها دوليًا في نهاية ٢٠٠٨, وقد سبق لبعض الكتاب الغربيين التنبؤ بانهيار العولمة قبل ظهور بوادر هذه الأزمة بعدة سنوات, ومن بينهم هارولد جيمس الذي أصدر كتابه (نهاية العولمة) سنة ٢٠٠١, وجون رالستون مؤلف كتاب (انهيار العولمة) الصادر عام ٢٠٠٤.

(١) علي الطراح: الإسلام وتحديات العولمة, (مقال) جريدة الشرق الأوسط, ٢٠٠٤/٢/٢٨

(٢) علي شريعتي: العودة إلى الذات, ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا, الزهراء للإعلام العربي, القاهرة, ١٩٨٦

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً: أهمية صياغة المفاهيم السوسيولوجية على أساس مرجعية قرآنية

تزايدت محاولات صياغة علم الاجتماع استنداً إلى مرجعية إسلامية في العقود الأخيرة من القرن العشرين, وعرض بعض أصحاب هذه الدعوة الدواعي التي تبرر هذه الصياغة, وعلى رأسها ما أصاب علم الاجتماع الغربي من خلل تجسد في عجزه عن تفسير الظواهر الاجتماعية وانغماسه في خدمة الأيديولوجيات المختلفة, ومن هنا تحددت أهم أهداف الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع في إبراز الهوية الإسلامية وتحكيم المبادئ الإسلامية في جميع مجالات الحياة.(١)

وهكذا شكلت أزمة علم الاجتماع الغربي أحد الدواعي الرئيسة لصياغة علم اجتماع من منظور إسلامي. تلك الأزمة التي شُخصت في أكثر من اتجاه, ورأى "علي ليلة" أن أهم أسبابها يرتبط بتآكل فاعلية النظرية الاجتماعية الغربية نتيجة لافتقادها عنصري الثقة والصدق العلمي, ومن ثم ذهب إلى أن تاريخ العلم الاجتماعي أو – بالأصح- تاريخ التنظير فيه يشهد على تآكل الثقة والصدق النظري في نظريات كانت تملأ ساحة العلم في فترات تاريخية بعينها من تاريخ العلم كالنظرية الماركسية والبنائية الوظيفية في صورها التقليدية والتفاعلية الرمزية والسلوكية, وبذلك انسحبت عن المسرح العلمي نظريات الحداثة لتآكل الثقة فيها لتحل محلها نظريات ما بعد الحداثة غير مكتملة الثقة,(٢) ولهذا كان من المنطقي أن تظهر اتجاهات جديدة في علم الاجتماع تتبنى صياغة أطر نظرية أكثر صدقاً وأكثر فاعلية تمثل البديل العلمي للبنية النظرية الغربية المتآكلة.

وعلى ذلك ظهرت الحاجة في المجتمعات العربية للتمسك بمشروع صياغة علم الاجتماع من منظور إسلامي, وقد تطلب ذلك بالضرورة العمل على بناء نظرية اجتماعية إسلامية, وهذا يتطلب بدوره بناء مفاهيم علم الاجتماع استناداً إلى مرجعية إسلامية, على أساسٍ من أن المفاهيم تشغل مكانة محورية في بناء أية نظرية علمية, ومن هنا ينبغي التأكيد أن الدعوة لبناء مفاهيم سوسيولوجية على أساس مرجعية قرآنية ليست دعوة للصدام مع علم

---

(١) منصور زويد المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان, كتاب الأمة, وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية, ط١, قطر, ١٩٩٢, ص ص ٣٩-٤٠

(٢) علي ليلة: مشروعية بناء علم الاجتماع من منظور إسلامي, ندوة علم الاجتماع من منظور إسلامي, مركز الدراسات المعرفية, ٢٠٠٧/٢/٢٠, ص ٢٩, ٣٠

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاجتماع الغربي, ولا تستهدف خلق حالة من العداء مع الحضارة الغربية, ولكنها دعوة تهدف إلى التخلص من هيمنة هذه الحضارة وسيطرتها على مقدرات الشعوب الإسلامية, وهذا مطلب عادل تسعى إليه كل أمة تعتز بهويتها وتطمح في الحفاظ على وجودها الحضاري، ومن هنا تبدو أهمية صياغة مفاهيم علم الاجتماع استناداً إلى مرجعية إسلامية, من منطلق أن البداية العلمية السليمة لبناء النظرية الاجتماعية الإسلامية تستدعي بناء منظومة مفاهيمية إسلامية تستند إلى مصادر الفكر الإسلامي الأساسية المتمثلة في (القرآن الكريم والسنة النبوية). وبذلك يمكن تقديم رؤية تصورية ونظرية حول الكون والوجود والمجتمع والإنسان تختلف عما قدمه الغرب.

ولا شك بأن بناء المفاهيم السوسيولوجية استناداً إلى مرجعية قرآنية تعد عملية عقلية تتم وفق المنهج الإسلامي, وهنا لابد أن يعتمد العقل على موجه من الوحي, وهذا لا يعد إنكاراً لقيمة العقل بل تأكيداً لقدرة العقل البشري على الإبداع, فالمقصود ببناء مفاهيم علم الاجتماع من منظور إسلامي ليس استخراج المفاهيم المباشرة التي ذكرت في النصوص القرآنية والنبوية, بل المقصود به استخدام الإمكانات العقلية والذهنية لفهم النصوص وفهم الواقع ومتغيراته, وإدراك المقاصد القرآنية, والوعي بالسنن والقوانين الاجتماعية الواردة في القرآن, وفي إطار كل ذلك تتم صياغة مفاهيم علمية حديثة ملتزمة بالمرجعية الإسلامية, ومعبرة عن التصورات الإسلامية.

إذاً فالمطلوب هو توظيف الأدوات الإسلامية من أجل صياغة مفاهيم سوسيولوجية حديثة, والاستعانة بالمفاهيم القرآنية لاكتشاف السنن والقوانين الاجتماعية التي تحكم الظواهر الاجتماعية وفق رؤية إسلامية مخالفة للمذاهب المادية الغربية, وبالتالي تقديم إضافة لعلم الاجتماع والفكر الإنساني كله, حيث يعد ذلك ضرورة علمية مُلحة خصوصاً في ظل الأوضاع العالمية المضطربة, والتعثر النظري للتيارات الفكرية الغربية في تقديم رؤية تتسم بالصدق العلمي, مما يؤكد أن الظروف باتت مواتية أكثر من أي وقت مضى لتقديم البديل النظري الإسلامي الذي يمكنه أن يكون أكثر صدقاً وقَبولاً في عالمنا الراهن.

ثانيًا: كيفية بناء مفاهيم علم الاجتماع من منظور إسلامي

من المعلوم أن المفاهيم في أية نظرية سوسيولوجية تُبنى في الغالب من خلال رؤية أيديولوجية موجهة, ولذلك تتميز بعض المفاهيم بالتحيز والذاتية, وقد تخدم وتبرر مواقف مذهبية عقائدية تعمق العنصرية والاستعلاء والاحتكار والاستغلال لحساب بعض الفئات, وتبدو خطورة الاعتماد على مثل هذه المفاهيم فيما تقدمه من نماذج تحليلية زائفة ليس

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بمقدورها معالجة مشكلات المجتمع المسلم, لأنها وليدة أطر اجتماعية مختلفة عن الإطار الإسلامي, لذلك فإن إنتاج مصطلحات سوسيولوجية تستند إلى المرجعية الإسلامية يساعد في التخلص من هيمنة المصطلحات والمفاهيم الغربية التي قد تحمل دلالات مناقضة للمعرفة الإسلامية والمفاهيم القرآنية, فالادعاء بعالمية المفاهيم لم يعد مقبولاً, وقد تأكد أن نقل المفاهيم من محيط اجتماعي إلى محيط آخر مغاير له يؤثر سلباً على بنية المجتمع.

ويتطلب بناء مفاهيم علم الاجتماع من مرجعية إسلامية عمليتين أساسيتين هما:

- تقديم رؤية نقدية لبعض المفاهيم القديمة والمفاهيم المستحدثة في آن واحد.
- صياغة مفاهيم حديثة تستوعب ما يستجد من أنماط وظواهر اجتماعية.

وتتأسس هاتان العمليتان على النظر والتأمل فيما جاء به النص القرآني من مفاهيم تتميز بالحيوية والثراء في التعبير والدقة في المعنى والحكم الصالح لمختلف مراحل التطور الإنساني, حيث يقول المولى عز وجل: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا).(الفرقان:١) وهكذا يطرح القرآن الكريم مفاهيم محددة واضحة في آيات محكمات أُطلق عليها في التنزيل (أم الكتاب), ذلك لأنها آيات جلية في معانيها لا تحتمل التأويل والاختلاف.

وفي سياق عملية بناء مفاهيم علم الاجتماع من مرجعية إسلامية يجب التنبيه والإشارة إلى الفرق بين ما نسميه مفاهيم سوسيولوجية من منظور إسلامي ينتجها الفكر الإنساني وبين المفاهيم القرآنية (الشرعية) الثابتة التي طرحها القرآن في آياته المحكمات, حيث أتى القرآن الكريم بمنظومة مفاهيمية ثرية بالمصطلحات الشرعية مثل (التوحيد, والشرك, والكفر, والصلاة, والزكاة, والقصاص, والحلال, والحرام, والصبر, والنفاق, والجهاد, والطلاق, والزواج,.... إلى آخرها من مفاهيم لا يمكننا حصرها في هذا المقام), وهذه المفاهيم القرآنية تمكن الاستعانة بها في تشكيل أساس لمنظومة مفاهيمية في علم الاجتماع من مرجعية إسلامية قرآنية, مع الأخذ في الحسبان أن المرجعية القرآنية تعطي للباحث إمكانا مستمرًا لتجديد المفاهيم بشكل مرن وواسع يتفق مع الخبرات الإنسانية المتجددة, بشرط ألا يخرج بدلالات أي مصطلح عما قصده التشريع الإلهي.

هذا من جانب, ومن جانب آخر يحق لمن يقوم ببناء مفاهيم علم الاجتماع من منظور إسلامي أن يضيف ما يستجد من مفاهيم مستحدثة لم تذكر ضمن منظومة المفاهيم القرآنية, ولكن عليه أن يراعي ألا تتعارض هذه المفاهيم المستحدثة مع مقاصد القرآن, وألا تتعارض في دلالاتها مع أحد المصطلحات القرآنية, أي أن عملية صياغة أي مفهوم حديث لم يتعرض له النص القرآني يجب أن يُراعى فيها الاتساق مع منظومة المفاهيم القرآنية المحكمة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا كانت المشيئة الإلهية قد اقتضت أن يحمل القرآن الكريم آيات محكمات, فقد قَدَرَتْ أيضًا أن يحمل القرآن من الآيات ما يثير في الإنسان التفكر والتدبر والبحث لاستخراج المعاني المتجددة التي تناسب مقتضيات التغير والتنوع والاختلاف في الزمان والمكان, لذلك يقول الله تعالى: (... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (النحل:٤٤). وهذا يشير إلى أن ثمة " تبياناً"* أي دلالات واضحة جاء بها الرسول, كما أن ثمة مساحة واسعة للتفكر والتدبر وهذا يتيح لأهل الاختصاص من أولي العلم توليد مفاهيم حديثة تحت ضبط البيان القرآني.

من هنا يمكن القول إن عملية بناء منظومة مفاهيمية سوسيولوجية بمرجعية إسلامية يجب أن تتم من خلال آليتين أساسيتين: الأولى تعتمد على التفسير والاستنباط لبناء مصطلحات علم الاجتماع الجديدة من خلال الاجتهاد في فهم النص وتفسير معانيه واستنباط المفاهيم عنه, حيث يرفض المنهج الإسلامي الاعتماد على التجربة الإنسانية أو الاستقراء العلمي فقط لبناء مفاهيم النظرية الاجتماعية, بل يحتاج الأمر إلى استلهام الوحي لإدراك نظرة الإسلام إلى الكون والوجود والحياة الإنسانية, وبهذا يختلف المنهج الإسلامي مع النزعة التجريبية التي تقوم على الوسائل الحسية والإدراك العقلي فقط, ومن المعروف أن هذه النزعة لم تصل بالعلم إلى مرحلة اليقين, مما دعا بعض فلاسفة الغرب إلى نقدها, فظهرت فلسفة التكذيب **Falsification** على يد كارل بوبر **Karl Popper** الذي فند من خلالها الادعاء بأن الاستقراء – أي الملاحظة الخالصة- هو طريق النظرية العلمية, وذهب إلى أن التجربة لا يمكنها أن تؤيد شيئاً بتاتاً, إنما يمكنها فقط أن تكذب نظرية أو فكرة ما إذا ما أسفرت عن نتائج لا توائم هذه الفكرة أو تلك النظرية.(١)

إلا أن "بوبر" توقف عند التشكيك في النزعة التجريبية, ولم يصل إلى ما انتهت إليه المعرفة الإسلامية التي لم تكذب الاستقراء بل رأت ضرورة ضبطه بميزان الوحي, ومعنى ذلك أن بناء مفاهيم علم الاجتماع بمرجعية إسلامية لا ينفي الحاجة إلى الملاحظة والإدراك العقلي ولكنه يضبطهما من خلال تحكيم النص. وجدير بالذكر أن بعض علماء الاجتماع المسلمين قد نجحوا في ضبط المفاهيم من خلال النص, ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما استطاع أن يحققه عالم الاجتماع الإيراني "علي شريعتي" من نجاح في صياغة مفاهيم علم الاجتماع

---

* التبيان مصدر من البيان, أي ما بُين به الشيء من الدلالة وغيرها, واستبان الشيء أي ظهر, والتبيين هو الوضوح, وتبيان كل شيء أي كشفه وإيضاحه. راجع ابن منظور: لسان العرب, المجلد الأول, دار الحديث, القاهرة, ٢٠٠٣, ص ص ٥٧٥-٥٧٦.

(١) انظر يمنى طريف الخولي: فلسفة كارل بوبر, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ط٢, القاهرة, ٢٠٠٣, ص١٤٥, ٣٤٠

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بمرجعية إسلامية جمعت بين قراءة الوحي وقراءة الواقع, ومما قدمه في هذا السياق على سبيل المثال مفهومي (التشبه), و(الاستحمار).[١]

أما الآلية الثانية التي يجب الاعتماد عليها لبناء مفاهيم علم الاجتماع من منظور إسلامي فتختص بالمراجعة التحليلية للمفاهيم المتداولة (القديمة والمستحدثة), وإعادة النظر فيها بعد تفكيكها وفهمها. أو كما يقول "طه العلواني": إن عملية التحليل والتفكيك تساعد على فهم المفهوم ومعرفة نواحي القوة والضعف فيه.[٢] وتهدف عملية التحليل أولاً إلى البحث عن هوية كل مفهوم من حيث مرجعيته ومصدره وتتبع المفهوم, وبالتالي معرفة ما إذا كان قابلاً للتطوير أو التعديل أو الإضافة أو الإسقاط.[٣] أي أن المراجعة الاصطلاحية للمفاهيم هدفها الأساسي الحكم على مدى صلاحيتها أو فسادها. والمصطلح الفاسد يُقصد به أنه إما أن يكون مخالفًا للثوابت الإسلامية الشرعية, أو أن يكون محرفا لبعض دلالات هذه الثوابت.[٤]

وعلى ذلك لا يُحكم على المفهوم إلا بكتاب الله تصديقاً لقوله تعالى: (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ...) (الأنعام :١١٤), (وإن تطع أكثر من في الأرض يُضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون).(الأنعام: ١١٦) لذلك فإن التأمل الذهني وحده لا يكفي لإجراء مراجعة دقيقة للمفاهيم المتداولة, كما أن الاختبارات المتكررة لا تكفي للحكم على المفهوم حكمًا سليمًا, مما يؤكد ضرورة العودة إلى مرجعية القرآن الكريم.

ويمكن أن تُجرى مراجعة المفهوم على عدة مستويات حددها "صلاح إسماعيل"[٥] فيما يلي:

١. المستوى الأول يبدأ بفحص المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للألفاظ التي تعبر عن المفاهيم, وهذا يفيد في الكشف عن دلالات اللفظ, كما يكشف عمليات التلبيس والتحريف الدلالي إن وجدت.
٢. المستوى الثاني يتناول السيرة الدلالية للمفهوم, والتمييز بين الدلالات الأصلية التي تجلب عند وضعه لأول مرة, والدلالات التاريخية التي اكتسبها عبر تطوره.

---

(١) راجع علي شريعتي: مرجع سابق, ص١٠٦, ١٣٩ , ٢٨٢.

(٢) طه جابر العلواني: (تقديم)) بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية, المجلد ١, المعهد العالمي للفكر الإسلامي, ط١, ١٩٩٨, ص ٧.

(٣) سيف الدين عبد الفتاح: المرجع السابق, ص ٢٨.

(٤) علي جمعة: مدخل لقضية المفاهيم والمصطلحات, المرجع السابق: ص ٢٠.

(٥) صلاح إسماعيل: توضيح المفاهيم ضرورة معرفية, المرجع السابق, ص ٥١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣. تحليل البنية الدلالية للمفاهيم والتمييز بين العناصر الأساسية والعناصر الفرعية في هذه البنية.

٤. وفيما يخص المفاهيم المترجمة تجب على المترجم معرفة الدلالات الأصلية والتاريخية للمفهوم الذي ينقله إلى اللغة العربية والاعتراف بالخصوصية الحضارية والسمات اللغوية والمنطقية للغة التي تصاغ فيها المفاهيم.

٥. ويمكن أن نضيف إلى ما سبق مستوً آخر في تحليل المفاهيم - خصوصًا عند مراجعة المفاهيم المترجمة- يتعلق بمقارنة المصطلحات الغربية التي أصبحت متداولة في المجتمعات الإسلامية بالمصطلحات القرآنية.

ويعد هذا المستوى الأخير ضرورة, خصوصًا مع الانتشار الواسع للمصطلحات الغربية بوصفها بديلاً عن المصطلحات القرآنية في سياق الحملات المضادة للإسلام بهدف إقصاء المفاهيم الإسلامية عن مختلف ميادين الحياة، وهذه الحملات تستهدف واقعياً فرض القيود على الفكرة والكلمة، أي على مضمون الدعوة نفسه, ويجري ذلك على محورين, أولهما تكرار المقولات العلمانية التي تعتمد التأويل المنحرف عما يقرره الإسلام وتثبّته نصوصه الشرعية والاجتهادات المعتبرة, وثانيهما العمل على تسويغ ملاحقة "المخالفة الفكرية" لتلك التأويلات التي تساهم (حرب المصطلحات) عن طريق وسائل الإعلام والفكر في العمل على نشرها وتعميمها، كما لو كانت بديهيات لا تحتاج نقاشًا .![1]

وبمراجعة كثير من المصطلحات الغربية الوافدة والمستحدثة يمكن أن نكتشف أنها في حقيقتها ليست سوى مسميات جديدة لمصطلحات قرآنية حُرف مدلولها. وثمة نماذج عديدة لمصطلحات غربية استبدلت بمصطلحات إسلامية يحمل بعضها دلالات سلبية منهيًا عنها نهيًا صريحًا في القرآن, لذلك فهي غير مقبولة اجتماعياً وقيمياً في إطار الثقافة الإسلامية, ولهذا تبدو محاولات فرض المسمى الجديد وسيلة لإزاحة المسمى القرآني, لحجب المدلول الأصلي مما يساعد على تمرير المعنى التحريفي الذي يتضمنه الاصطلاح الغربي, تمهيدًا لخلق حالة من القبول ولو جزئيًا بقيم الثقافة الغربية.

وعلى ذلك يمكن القول إن استخدام المصطلحات الغربية لا يجيء بصورة اعتباطية، فتمرير المصطلح الغربي على أرض الواقع واستخدامه بديلاً عن المسمى القرآني يمهد لإلغاء المصطلح الإسلامي، حيث يتلقى المستغربون وغيرهم المصطلحات ويتداولها الجميع, لتصبح

---

(١) نبيل شبيب: هل توصل محاولات علمنة الإسلام إلى نتيجة؟ دعوة التعايش مع الآخر تتناقض مع العمل لتطويعه, ٢٠٠٩/١/١١ متاح في:
http://www.midadulqalam.info/midad/modules.php?name=News

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جزءًا من الواقع اللغوي في عالم الفكر عن وعي أو بدون وعي بما يكمن وراء هذه المصطلحات من معاني خطيرة تسهم في دعم الغزو الثقافي, ثم تنتشر تلك المصطلحات في النسيج اللغوي للجماهير بهدف تزييف الوعي الإسلامي, وتحقيق الأهداف الغربية.

وفيما يلي نعرض بعض المفاهيم الغربية الوافدة التي استبدلت بمفاهيم قرآنية ترمز إلى مدلولات سلبية نهى القرآن عنها:

الزنا	←	الخيانة الزوجية
الربا	←	فوائد البنوك
الميسر	←	اليانصيب/ الحظ
الخمر	←	المشروبات الكحولية أو الرُوحية
اللواط	←	الجنسية المثلية
تبرج النساء	←	التجميل

من جهة أخرى تُنشر مسميات اصطلاحية غربية تحمل دلالات إيجابية بدلاً عن مصطلحات قرآنية تحمل دلالات طيبة يحث عليها الإسلام بل بعضها يمثل فروضاً واجبة على كل مسلم, ولنا أن نتساءل عن هدف استبدال المفهوم الغربي بمفهوم قرآني في مثل هذه الحالات؟! وربما تكون الإجابة بأن حجب المفهوم القرآني يعد وسيلة لإقصاء المرجعية الدينية عن السلوك الاجتماعي, بهدف تنحية المرجعية الإلهية بوصفها موجهًا للقيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية, وفي النهاية تنفصل حياة المجتمع عن المقاصد الشرعية تمشيًا من توجهات المذاهب المادية الغربية, ومن المصطلحات القرآنية التي تُحجب ويُنشر بديلها على سبيل المثال لا الحصر:

الزكاة	←	التبرعات الخيرية
التكافل الاجتماعي	←	الإحسان
كفالة اليتيم	←	التبني
التسامح	←	التعايش
أهل الذمة	←	الأقليات الدينية
الجهادي	←	الفدائي / الانتحاري

علاوة على عملية إقصاء المصطلحات القرآنية عن لغة التخاطب وإحلال مسميات غربية حديثة بدلاً عنها يعمل بعض الباحثين مقاربات بين بعض المصطلحات الإسلامية والمصطلحات الغربية, بهدف إثبات التطابق بين المصطلحات الإسلامية والغربية حتى إن تعسفوا في إثبات هذا, وذلك الأمر يمكن أن يؤدي إلى نقض الثوابت والمحكمات لخدمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

توجهات ومبادئ غربية مخالفة لمقاصد الإسلام, لينتهي الأمر بالمجتمع إلى التخلي عن المرجعية الإسلامية وقبول المرجعية المادية الغربية, وقد تنبه بعض المشتغلون بالعلوم الاجتماعية من أصحاب الرؤية الإسلامية لخطورة حركة الإقصاء والإحلال لما تحويه من أهداف تسعى إلى تغييب الروح الإسلامية عن حياة الأمة وواقعها الاجتماعي, ومن ثم بدؤوا يقودون حركة مضادة تعمل على طرح مفاهيم إسلامية بديلة للمفاهيم الغربية المستحدثة, من ذلك على سبيل المثال طرح مفهوم الاستقامة في مقابل مفهومي الموضوعية والذاتية اللذين يطرحهما الفكر الغربي. حيث تعني الاستقامة - كما تذكر "هبة رؤوف" - تقويم الواقع وفق الرؤية والمثالية الإسلامية, وهو ما يربط الاستقامة من خلال البعد القيمي بنفع الناس, ويحول العلم من حرفة أو ممارسة عقلية نظرية إلى وظيفة اجتماعية هدفها الإصلاح.(١)

يوضح ما سبق أن ثمة حركة فكرية إسلامية راهنة تعمل على مواجهة الغزو المفاهيمي الغربي للثقافة الإسلامية أو ما يمكن تسميته بـ(حرب المصطلحات), وهذه الحركة يمكن أن تنشط بشكل أوسع إذا وجدت القنوات التي تساعدها في الوصول إلى وعي المثقف المسلم أولاً ثم إلى وعي جماهير الأمة ثانياً, وهذا يتطلب جهدًا كبيرًا ويحتاج تعاونًا بحثيًا وإعلاميًا وربما يحتاج تبني من مؤسسات ومراكز معنية بالشأن الإسلامي حتى يمكن أن تتحول هذه الحركة من مجرد جهود فردية إلى حركة فكرية داعمة لبناء مفاهيم العلوم الاجتماعية من منظور إسلامي.

ثالثًا: مراجعة مصطلح التعايش بوصفه نموذجًا للمصطلحات المستحدثة الوافدة

مادام المفهوم مستخدماً في نطاق العلم فقط فليس ثمة مشكلة, وتبدو الخطورة كما يقول "علي جمعة" حينما يُستخدم المصطلح لمخاطبة عموم الناس, حيث تختلف مستويات الخطاب وجمهوره, ومن ثم يأخذ اللفظ الواحد معاني شتى. والأخطر أن يُطرح المصطلح ويُفسر عشوائيًا, فيصبح للمصطلح أكثر من مفهوم, وهنا تظهر المُشاحة أو المُنازعة حيث إن هذا يسبب الخطأ في الاستعمال طبقًا للخطأ الحاصل في ذهن المستعمل, لذا فهو يحمل في طياته تلبيسًا خطيراً.(٢)

---

(١) هبة رؤوف: الاستقامة, (مقال) متاح في: موقع إسلام أون لاين .http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mafaheem-5.asp

(٢) علي جمعة: مدخل لتصفية المفاهيم والمصطلحات, بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية, مرجع سابق, ص ٢١, ٢٢

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويبدو أن مصطلح "التعايش" يمثل نموذجًا واضحًا للمصطلحات الملتبَسة, حيث يستخدم هذا المصطلح في الوقت الراهن بشكل واسع بين أوساط مختلفة من الجماهير, ويدخل في لغة الخطاب لدى كثير من المثقفين والدعاة ورجال الفكر, وهو ما استدعى الاهتمام بمراجعته بوصفه مفهومًا مستحدثًا وافدًا من الغرب. وسوف نتبع النموذج التحليلي الذي عرضناه من قبل في مراجعة مفهوم التعايش بهدف الوصول إلى حقيقة المفهوم وما إذا كان قابلاً للتعديل أو الإضافة أو الإسقاط.

١. **المعنى اللغوي للفظ التعايش**

العيش - في لسان العرب - يعني الحياة كما يقصد به ما تكون به الحياة من مشرب ومطعم, والعيشة ضرب من العيش, ويقال حال فلان معي عيش وجيش, أي مرة معي ومرة علي,[١] أما لفظ التعايش فلم يرد في لسان العرب, وإن ورد في المعاجم الحديثة مثل المعجم الوسيط حيث ذكر: (تعايشوا أي عاشوا في الألفة والمودة, ومنه التعايش السلمي),[٢] ويفيد ذلك أن لفظ التعايش قد دخل إلى المعاجم العربية حديثاً. لكن العرب استخدموا لفظ العيش في مقابل الجيش, مما يعني أن التعايش ضد التنازع, ويفهم من ذلك أن العرب يعدون السلم عنصرًا أساسيًا يدخل في مدلول التعايش فلا يحتاج الأمر طبقاً للفهم العربي أن نضيف إلى مصطلح التعايش صفة سلمي.

أما لفظ التعايش في اللغة الإنجليزية **Coexistence** فيرمز إلى معنى التصاحب في الوجود،[٣] والتصاحب يعني المرافقة أو التلازم أو الانقياد, ولا يعني بالضرورة أن تكون بين المتصاحبين مودة, بل يحتمل تنازع الأصحاب أو الرفقة.* مما يعني أن التعايش في الإنجليزية لا يحمل معنى المودة والألفة بالضرورة على خلاف ما يرمز إليه اللفظ في اللغة العربية، لذلك يضاف لفظ السلمي إلى التعايش للإشارة إلى العلاقات غير العدائية بين الدول ذات الأنظمة المختلفة, مما يعني أن ثمة اختلافًا في المدلول اللغوي بين لفظ التعايش المستخدم في اللغة العربية, وبين لفظ **Coexistence** المستخدم في اللغة الإنجليزية.

من هنا يمكن القول إن الترجمة قد تلعب دورًا في التباس المفهوم, فاللفظ **Coexistence** حين يستخدم مفردًا فقد يحتمل السلم كما يحتمل التنازع, لهذا يفرقون بين مصطلحي:

---

(١) ابن منظور: لسان العرب, المجلد ٦, ص ٥٤٦.

(٢) المعجم الوسيط, ج١, المكتبة الإسلامية, ص ٦٣٩.

(٣) قاموس المورد: ص ١٩٠.

* جاء في التنزيل: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار) (البقرة:٣٩), كما يقول المولى عز وجل: (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار)(ص:٦٤).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(Coexistence) و **(Peaceful Coexistence)** , في حين أنه في العربية يعد التعـــايش مـــضادًا للتنازع بشكل عام.

٢. المعنى الاصطلاحي للتعايش

التعايش مصطلح بيولوجي في الأساس يستخدم لوصف بعض صور التـــصاحب فـــي الوجود بين الكائنات الحية, حيث يُصنف (التطفل) في علم الأحياء كأحد أشكال التعايش الـــذي يؤذي المعيل, كما يُصنف (التكافل) بين بعض أنواع الكائنات المختلفة كشكل آخـــر للتعـــايش, وهناك أيضًا تعايش الاستغلال حيث تعيش بعض الكائنات مع أنواع أخرى لتستفيد منها فقـــط دون أن تقدم لها أية منفعة.*

ومن المعلوم أن مصطلح التعايش انتقل من علم الأحياء إلى علم الســـياسة حيث ابتـــدأ رواجه مع ظهور الصـــراع بين الكتلتين الشرقية والغربية اللتين كانتا تقســـمان العـــالم إلـــى معسكرين متناحرين قبل انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط سور بـــرلين، ويـــذكر أن أول مـــن استخدم مصطلح (التعايش السلمي)

(Peaceful Coexistence) هو الرئيس السوفيتي "خروتشوف" ولم يكن يعني به تراجع بـــلاده عن تحقيق أهدافها المعلنة, بقدر ما كان يعني به محاولتها تحقيق هذه الأهداف بطريقة تنـــسجم مع مقتضيات التغيرات التي طرأت على المسرح الدولي, كوجود ما يعرف بتوازن الرعب.(١)

وقد استُخدم مصطلح "التعايش السلمي" في هذه المرحلة بمعنى الحد مـــن الـــصراع, أو ترويض الخلاف العقائدي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي, أو العمل على احتوائـــه, أو التحكم في إدارة الصراع بما يفتح قنوات للاتصال, وللتعامل الذي تقتضيه ضـــرورات الحيـــاة المدنية والعسكرية, وهذا هو المستوى الأول لاستخدام المفهوم, وقد استخدم المفهوم اقتـــصاديًا

---

* من أبرز الأمثلة على التطفل (تطفل الوقواق), فمن المعروف أن أنثى الوقواق تضع بيضة واحـــدة فـــي أعشاش العصافير المغردة, وبعد التفقيس يبعد فرخ الوقواق كل بيوض العصافير وفراخهـــا مـــن العـــش ليستولي عليه وحده. وبهذا يحمل مصطلح التعايش معنى الإيذاء في بعض أشكاله, وثمة صور من التعايش تأخذ شكل التكافل أو تبادل المنفعة, فطحالب (الأشنات) تكون مع جذور النباتات (فطريات الجذور) حيث يتكافل الفطر مع الكائن الآخر ليحصل على المواد الغذائية التي لا يستطيع تكوينها بنفسه ويساعد الفطـــر الكائن الآخر في امتصاص الماء والذائبات. وثمة تعايش يقوم على الاستغلال, حيث يربي النمل حشرات (المن) التي تسمى خطأ "قمل النبات" وهي تدر قطيرات من سائل حلو المذاق يشبه العسل، حين تحتلب. لذلك تسمى هذه الحشرات أبقار النمل, وهناك أنواع أخرى من النمل تتخذ من نطـــاط الـــشجر وبعـــض الخنافس "أبقارا" لها.

(١) عبد العزيز بن عثمان التويجري: الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين, المنظمة الإســـــــلامية للتربيـــــــة والعلـــــــوم والثقافـــــــة, ١٩٩٨متـــــــاح فـــــــي: http://library.moe.edu.kw/ipac20/ipac.jsp?session

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أيضًا ليرمز إلى علاقات التعاون بين الحكومات والشعوب فيما له صلة بالمسائل القانونية والاقتصادية والتجارية من قريب أو بعيد. [١]

ثم انتقل المصطلح بعد هذا من علم السياسة إلى علم الاجتماع ليستخدم للإشارة إلى التعايش بين الديانات والحضارات والثقافات, وهذا المستوى الأخير للمصطلح انتشر حديثًا لدرجة أن دائرة المعارف السوسيولوجية لا تزال تشير إلى مفهوم التعايش السلمي فقط (وهو المستوى السياسي للمفهوم) ولم يرد بعد ذكر لمفهوم التعايش الثقافي أو الديني.

٢.ويستخدم المصطلح على المستوى الثقافي بأكثر من معنى مما يثير اللبس لدى المتلقي, وقد عرف معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية مفهوم التعايش بوصفه: معيشة جماعات مع بعضها البعض أو في الوقت نفسه. ويثير المهاجرون مشكلة التعايش مع السكان الأصليين, وقد يتجه هذا التعايش نحو الانصهار, أو الاندماج, أو أن تحافظ الجماعات على التفرقة العنصرية.[٢]

وثمة من يستخدم مصطلح التعايش بين الأديان ويرمز به إلى التقاء إرادة أهل الأديان السماوية والحضارات المختلفة في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم, وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بني البشر جميعًا دون استثناء. كما يُستخدم المصطلح أيضًا للإشارة إلى الاحترام المتبادل والثقة المتبادلة والاحتكام إلى القواسم المشتركة, وإلى القيم والمثل المشتركة التي لا خلاف أو نزاع حولها, بما يعزز التزام الجانبين بما اجتمعت عليه إرادة المجتمع الدولي.[٣]

والمصطلح بهذا المفهوم يثير بعض الإشكاليات, فإذا اتفقنا على بعض ما يضمه المفهوم من مدلولات تشير إلي مبادئ سامية مثل الأمن والسلام العالميين, والاحترام المتبادل والإخاء والتعاون, فهناك إشارات أخرى مثل(القواسم المشتركة), و(إرادة المجتمع الدولي) تمثل أبعاداً خطيرة, تجعل مدلول التعايش في النهاية يشير إلى التوافق والتكيف مع القواعد والأسس الخاصة بالحضارة الغربية والقبول بها بوصفها الإطار العام المنظم لما يسمى بالإرادة الدولية, فتصبح عملية البحث عن القواسم المشتركة وسيلة للتوافق مع عناصر الرؤية الغربية الليبرالية, وبهذا يفضي مفهوم التعايش إلى تأكيد ونشر العولمة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أحمد زكي بدوي: معجم العلوم الاجتماعية , ص ٦٨.

(٣) عبد العزيز بن عثمان: مرجع سابق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣. سيرة المفهوم وتطوره

٣.أشرنا في الفقرة السابقة إلى ما يثيره مصطلح التعايش من إشكاليات, وربما تتضح هذه الإشكاليات أكثر من خلال تتبع سيرة مفهوم التعايش وتطوره, حيث يبدو مفهوم التعايش من المفاهيم المستحدثة في العلوم الاجتماعية إلى حد كبير. فمازال هذا المصطلح في طور التشكيل, وإن حاول بعض المنظرين اصطناع جذور تاريخية له على أساسٍ من أن قيم التعايش والحقوق الإنسانية كانت قائمة في الحضارات القديمة لاسيما في حضارة العراق القديمة.[١] وقد سبق استخدام المصطلح في علم السياسة في إطار محدد هو (التعايش السلمي) وكانت بداية الترويج له في النصف الأخير من القرن العشرين مع ظهور الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية كما سبقت الإشارة. وهذا يوضح ارتباط المفهوم في الأساس بخبرة غربية, وحتى مرحلة انتقال المفهوم إلى علم الاجتماع وبداية تداوله بوصفه مفهومًا ثقافيًا وحضاريًا كانت في أوروبا بسبب خبرة غربية تزامنت مع الإشكالية التي ولدها تزايد عدد المهاجرين الشرقيين والمسلمين إلى أوروبا, حيث بدأت المجتمعات الأوروبية تستشعر خطر الزحف الإسلامي إليها عبر الهجرة الشرعية وغير الشرعية, مما ولد جوًا من القلق باحتمال تغيير الطبيعة الديموجرافية لأوروبا على المدى البعيد, خصوصًا مع ما يتميز به المهاجرون المسلمون من خصائص سكانية تجعلهم يتفوقون عن المواطنين الأصليين في النمو العددي.*

وبالطبع بدأ الغرب يفكر في حل المعضلة القائمة التي تهدد بكارثة ثقافية بالنسبة لهم, فتزايد أعداد الأقليات المسلمة يعني انتشار الثقافة الإسلامية كثقافة فرعية في سبيلها إلى النمو والتوسع, مما قد يمثل تهديدًا مباشرًا للثقافة الغربية, إذا ما استمر تزايد عدد الوافدين والمتجنسين من المسلمين في أوروبا, وقد بدأت المخاوف تتزايد لدى الأوروبيين من احتمالات انتشار الثقافة الإسلامية, خصوصاً مع ظهور العديد من المظاهر والعادات الإسلامية داخل المدن الأوروبية مثل انتشار محلات الجزارة المختصة بذبح الحيوانات وفق الشريعة الإسلامية, وافتتح أول بنك إسلامي في لندن في أكتوبر ٢٠٠٤ تحت اسم (إسلاميك بنك أوف بريتين) وقد مثل حدثاً فريداً في أوروبا, وتأسيس منظمات إسلامية عدة مثل البرلمان الإسلامي، والمجلس الإسلامي، والحزب الإسلامي في بريطانيا الذي أسسه ديفيد موسى

---

(١) انظر المرجع السابق

* يعيش في دول الاتحاد الأوروبي أكثر من ٤٠ مليون مهاجر. كما يبلغ عدد أبنائهم وأحفادهم أكثر بكثير من هذا الرقم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بيدكوك عام١٩٨٩ وحظي بالاعتراف من قبل الهيئات التشريعية والتنفيذية البريطانية, بالإضافة لتزايد عدد المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية في مختلف المدن الأوروبية.

كل هذه المظاهر أدت إلى تزايد القلق لدى بعض الأوروبيين؛ هذا القلق الذي كشفت عنه بعض وسائل الإعلام الغربية, ومن ذلك ما نشرته جريدة "شيكاغو تريبيون" الأمريكية في يناير ٢٠٠٥ في تحقيقٍ مفصلٍ عن المسلمين في أوروبا- ولا سيما في فرنسا- يطرح المخاوف الغربية حول احتمال تأثير الوجود الإسلامي البشري المتنامي في القارة الأوروبية على تصوراتها العلمانية وتطبيقاتها لها في الميادين التشريعية والسياسية وغيرها.[١] وهذا الاحتمال لم يعد بعيدًا بعد أن دعا كبير أساقفة الكنيسة الإنجليكانية الدكتور "روان وليامز" في فبراير ٢٠٠٨ إلى التفكير في إدخال بعض مواد الشريعة الإسلامية ضمن القانون البريطاني, سواء تعلقت بمجال الأحوال الشخصية مثل شئون الطلاق والخلافات الزوجية أو تعلقت بتيسير حصول المسلمين على خدمات مالية غير ربوية، بوصف هذا أمراً لا مفر منه، من شأنه أن يساعد على مزيد من الإدماج والانسجام داخل مكونات المجتمع البريطاني. وقد ووجهت هذه الدعوة بالاستنكار الشديد من معظم رجال الدين والساسة البريطانيين مؤكدين أن القيم البريطانية يجب أن تبقى المصدر الوحيد للقانون البريطاني.

على ذلك يبدو أن ثمة رفض غربي لبناء فكرة التعايش والإدماج على أساسٍ من الإقرار بالتنوع الثقافي داخل المجتمعات الغربية, وخلافاً لذلك بدأ الترويج لفكرة دمج الأقليات المسلمة في المجتمعات الغربية في إطار الثقافة الأوروبية القائمة على الأسس الليبرالية والعلمانية, خصوصاً مع تزايد أعداد الأوروبيين الذين يدخلون الإسلام ويحرصون على التمسك بقيمه وأصوله إلى حدٍ أثار استياء بعض الأوساط الفكرية في أوروبا, إلا أن بعض المحللين رأوا أن عملية اندماج المهاجرين أو أصحاب الأصول غير الأوروبية عملية معقّدة تستدعي تضافر جهود كلّ الفاعلين في الحقل السياسي والثقافي والإعلامي والتعليمي وكذا مختلف مكوّنات المجتمع المدني من أجل نشر وتعميق مبادئ التسامح والاعتراف بحق اختلاف الأقليات المتواجدة في بلد واحد وقبول هذا الاختلاف والتعايش معه.[٢]

في هذا السياق بدأ مصطلح التعايش ينتشر ويتردد بشدة, ويفرض نفسه كمفهوم موجه للسكان الأصليين وللمهاجرين في آن واحد، فمن جهةٍ استُخدم المصطلح

---

(١) نبيل نعمة الجابري: التعايش في حوار المتحضرين (مقال), ٢٠٠٩/١/٨ , www.alnoor.se/author.asp?id=1710 - 74k

(٢) محمد نظيف: الهجرة السرية وتفشي ظاهرة الزواج المختلط: مداخلة بندوة حول الزواج في العلاقات المغاربية الأوروبية، كلية الحقوق وجدة المغرب.
http://sites.univprovence.fr/agirod/masni/fatema/mohammad%20nazif.htm

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمخاطبة الأوروبيين للحد من مظاهر النزاع التي بدأت تتجسد في المنظمات اليمينية المناهضة لانتشار الإسلام في أوروبا, وقد نشأت بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة, ومن هذه المنظمات حركة (SIOE) "أوقفوا أسلمة أوروبا" STOP ISLAMISATION OF EUROPE التي بدأت على شكل مواقع إلكترونية تتحدث بلسان التيار اليميني المتطرف، غير أنها تطورت بوصفها حركة منظمة في نهاية سنة ٢٠٠٦ مع إعادة نشر الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للنبي **r** في الدانمرك والعديد من دول الغرب, وتعلن هذه الحركة أن هدفها الرئيس هو مكافحة توسع الإسلام في أوروبا, حيث تؤمن بأن الإسلام والديمقراطية لا يتفقان بسبب تعاليم القرآن نفسه.(١) وقد جمع هذا التحالف عددًا من الأحزاب السياسية اليمينية المتطرفة في أوروبا، التي طالبت بمنع بناء المساجد في المدن الأوروبية للحد من انتشار الأفكار الأصولية بين مسلمي أوروبا، وأعربوا عن عدم قبولهم بأن يفرض المسلمون تقاليدهم وطريقتهم في الحياة في أوروبا، لأن معظمها لا تنسجم مع الطريقة الأوروبية في الحياة.(٢)

في مواجهة هذه الحركات المعادية للإسلام استُخدِم مصطلح التعايش لدفعهم إلى التخلي عن العداء العنصري نحو المهاجرين المسلمين, كما استخدم بهدف الحد من الصراع حتى لا يتطور إلى التطهير العرقي والإبادة الجماعية لمسلمي أوروبا, حيث بدت احتمالات وقوع الصدام الدموي كبيرة وتشكل أحد السيناريوهات المتوقعة للمستقبل الأوروبي حسب المفكر الأمريكي "دانيال بايبس", الذي ذهب إلى أن ثمة ثلاثة مسارات محتملة لأوروبا يمكن أن تؤثر على البشرية جمعاء هي: هيمنة المسلمين Muslims dominating, أو رفض المسلمين Muslims rejected, أو الاندماج المنسجم harmonious integration, ولما كانت فكرة اندماج المسلمين وقبولهم للثقافة الأوروبية أو ما يسميه بايبس "أوروبا التاريخية" historic Europe يمثل احتمالات ضئيلة برأيه, فإن المسارين الآخرين هما الأقرب للتنفيذ؛ أسلمة أوروبا أو الحرب الأهلية, غير أن بايبس يرى أنه من الصعب تصور أي السيناريوهين سوف يُشكل مستقبل أوروبا الغربية.(٣)

ورغم اقتناع كثير من المفكرين والأكاديميين الغربيين برأي بايبس حول صعوبة دمج المهاجرين المسلمين في الثقافة الأوروبية إلا أن مصطلح التعايش وُجه نحو المهاجرين بغرض إقناعهم بفكرة الاندماج في المجتمع الأوروبي للحد من نمو الثقافة الإسلامية كثقافة فرعية ذات وجود بارز, وفي إطار ذلك استحدث مصطلح (الإسلام الأوروبي) للإشارة إلى

---

(١) انظر موقع الحركة http://sioe.wordpress.com/about

(٢) جريدة الشرق الأوسط: الثلاثاء ٣ مارس ٢٠٠٩

(٣) Daniel Pipes: Europe or Eurabia? (IN) www.danielpipes.org/5516/europe-or-eurabia-108k

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ضرورة تبنّي المهاجرين المسلمين تصورات علمانية الجذور، بديلة عن بعض التصوّرات الإسلامية.[١] بهدف الاندماج مع المجتمع الأوروبي دون التخلي عن الديانة الإسلامية.

في ظل هذه الأجواء بدأ التباس مصطلح التعايش يتكشف فيما ظهر من اختلاف في مدلوله بين المختلفين– السكان الأوروبيين من جهة والمهاجرين المسلمين من جهة أخرى- ومثالٌ على ذلك ما يشار إليه من اختلافات قائمة في المجتمع الهولندي حول مفهوم التعايش, فالمجتمع الهولندي كباقي المجتمعات الغربية يعيش نوعاً من الصراع بين السكان الأصليين والهولنديين المنحدرين من أصول عربية أو إسلامية، وينظر كل طرف من طرفي الصراع إلى فكرة التعايش وفق رؤيته الخاصة, حيث يعتقد الهولنديون أن الأسر المهاجرة تعيش في مجتمع موازٍ للمجتمع الهولندي وأنها لا تحاول الاندماج فيه, أما الأقلية المسلمة فترى أن الاندماج الذي يرجوه الهولنديون ما هو إلا شكل من أشكال الانسلاخ عن قيمها ومعتقداتها الثقافية والدينية وأن المجتمع الغربي عموماً والهولندي خصوصاً يشن حملة عليها من أجل إخضاعها وإذابتها في ثقافته ومعتقداته المسيحية.[٢] مما يعني أن الهولنديين الأصليين والهولنديون من ذوي الأصول الإسلامية يختلفون في المعنى الاصطلاحي للتعايش.

ومما زاد من التباس مفهوم التعايش انتقال المصطلح من الغرب إلى العالم الإسلامي وفرضه بوصفه مفهومًا عالميًا يجب أن يطبق على كافة مجتمعات العالم, وبالنظر إلى الحالة المصرية... بدأ استخدام مصطلح التعايش في المجتمع المصري للتعبير عن أسس العلاقة بين عنصري المجتمع المصري (المسلم, والمسيحي). حيث صُنف العنصر المسيحي بوصفه (الآخر), وصُوِر المشهد كأن الواقع المصري يعاني وجود قطبين متنازعين يجب التوفيق بينهما من خلال فكرة التعايش. وهكذا انتقل المصطلح إلى المجتمع المصري دون اعتبار لاختلاف الخبرة التاريخية المصرية عن الخبرة الأوربية الحديثة المرتبطة بوجود عنصرين دينيين في مجتمع واحد, وبالطبع فإن الخبرة المصرية التي تزيد على أربعة عشر قرنًا لا تتشابه مطلقاً مع الخبرة الأوروبية في هذا الشأن, لكن المفهوم استُخدم لدعم فكرة المواطنة بوصف تعايش المسلمين والمسيحيين يؤسس للاستقرار ويبعد شبح الفتنة الطائفية.

وهكذا بدا مصطلح التعايش كما يروج له في إطار الحالة المصرية مختلفاً في عناصره وفي مدلوله عن ذلك الموجه للأقليات المسلمة في أوروبا كضرورة للاندماج في الثقافة الغربية, فالتعايش في الحالة المصرية لا يشير إلى اندماج الأقباط في الثقافة الإسلامية بوصفهم يمثلون أقلية دينية, ولكنه يستخدم للإشارة إلى فرض قيم المواطنة وقبول الآخر

---

(١) نبيل نعمة الجابري: مرجع سابق.

(٢) محمد مسعاد: (مقال) :أوروبا والأقليات مستقبل التعايش على المحك.

متاح في: موقع مؤسسة دويتشه فيله": صوت ألمانيا المرئي والمسموع والمقروء إلى العالم الخارجي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واحترام حرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وآراءه السياسية والدينية, ومن ثم انسحب المصطلح أيضاً لدى بعض مستخدميه للتعبير عن قبول (البهائيين) بوصفهم "آخرًا دينيًا" ينبغي الإقرار بحقوقه التي يفرضها مبدأ احترام الحرية الدينية كأحد عناصر التعايش, وعلى ذلك أضيف للمفهوم عناصر أخرى تزيد من درجة التباسه.

من جهة أخرى استخدم المصطلح في المجتمعات العربية في إطارٍ أوسع فيما سمي "تعايش الحضارات", حيث استهدف المفهوم دعم لأشكال مستحدثة من العلاقات بين الشرق والغرب بما يتناغم مع أفكار العولمة، كما استخدم المصطلح للترويج لما يُسمى بـ (ثقافة السلام), بهدف دعم فكرة قبول التطبيع مع الكيان الصهيوني, على أساس أننا نعيش مرحلة عالمية تؤكد على ثقافة السلام وقبول الآخر؛ الآخر الذي تحول في الحالة العربية الشرق أوسطية إلى (إسرائيل).* وهذا ما يوضح الأبعاد الأيديولوجية المرتبط بتداول المصطلح وما يخفيه من أهداف تتخطى المدلولات المعلنة للتعايش.

٤. عناصر مفهوم التعايش

تتنوع عناصر مفهوم التعايش من مجتمع إلى آخر, كما تختلف حسب اختلاف الجماعات المستهدفة من تعزيز المصطلح بينها, فحينما يستخدم المصطلح في المجتمعات الأوروبية فثمة تركيز على عدة عناصر للمفهوم هي: الاندماج , الانصهار, العنصرية, قبول الآخر.**

وحينما يستخدم المصطلح على المستوى الحضاري مُوجهاً إلى المجتمعات الإسلامية لفرض طابع محدد للعلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية وفق الإرادة الغربية, تبرز عدة عناصر أخرى للتعايش مثل: السلام العالمي, الإخاء, القواسم المشتركة بين الديانات السماوية, احترام الإرادة الدولية, قبول الآخر, حوار الحضارات، بينما يركز المصطلح على عناصر مختلفة حين يُستخدم بهدف رسم ملامح العلاقات بين الطوائف المختلفة في المجتمعات الإسلامية فيتضمن في هذه الحالة عناصر مثل: حقوق الإنسان, حرية الرأي, الحرية الدينية, المواطنة, التعددية, المساواة, قبول الآخر.

- * يبدو أن ثمة اهتمام إسرائيلي بنشر وتداول مصطلح التعايش بين عرب إسرائيل, ويظهر ذلك في حرص وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية على تعزيز فكرة التعايش بين الأطفال بوصفها أحد أهداف التربية في رياض الأطفال. يمكن الرجوع إلى موقع وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية المعنون:
http://www.tzafonet.org.il/uploads/community/aldad/yadem.htm

** جاء استخدام مصطلح التعايش في معجم (لاروس) الفرنسي بما يعني قبول آراء الآخرين وسلوكهم المتآلف القائم على مبدأ الاختلاف.(١٩)

نقلاً عن نبيل نعمة الجابري: التعايش في حوار المتحضرين (مقال) ٢٠٠٩/١/٨ موقع النور.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الملفت أن مصطلح التعايش يُستخدم في المجتمع الإسرائيلي موجهاً في الأساس لفلسطينيي الداخل الإسرائيلي لحثهم على قبول الواقع والتخلي عن فكر المقاومة, وفي هذه الحالة يُفرغ المفهوم من كل عناصره السابقة ولا يبرز سوى عنصر واحد هو "الحوار مع الآخر",* في حين تُستبعد عناصر مثل: المواطنة وحقوق الإنسان والمساواة, وعندما يقدم الخطاب الإسرائيلي مصطلح التعايش موجهًا إلى العرب خارج إسرائيل بهدف دعم فكرة التطبيع يركز على عناصر بعينها كالسلام وقبول الآخر وبناء الجسور, وفي هذا السياق يتم استغلال فكرة حوار الأديان والدعوة لتجديد الخطاب الديني لتعزيز هذه العناصر.**

وهذا الانتقاء الواضح لعناصر مصطلح التعايش بما يتوافق مع حالات بعينها في إطار توجهات سياسية وثقافية يحددها الخطاب الذي يطرح المصطلح, يشير إلى تعارض الأهداف الأيديولوجية الكامنة وراء استخدام المصطلح, وهذه الأهداف ربما تتغير وفقًا لتغير المكان وتغير الجمهور المستهدف من الخطاب والمصالح التي يسعى مقدم الخطاب لتحقيقها, مما

---

* افتتحت مؤسسة بذور السلام مركز التعايش في القدس لخريجي مخيماتها من إسرائيليين وفلسطينيين الذين يعرفون بـ"البذور". ويعمل المركز الذي أنشأ في ١٩٩٧ على تلقين "البذور" الفلسطينيين والإسرائيليين فكرة التعايش ومواصلة الحوار حول السلام الذي بدؤوه في ولاية ماين الأميركية، من خلال العمل معاً في مشاريع أكاديمية وفنية, ويقدم مركز التعايش بالقدس برنامج تعايش متقدمًا يشمل ندوات نقاش تركز على مواصلة الحوار.

نقلاً عن موقع: http://www.america.gov/st/washfile-arabic/2004 بتاريخ ٩ إبريل ٢٠٠٤.

** ركز شمعون بيرس في خطابه بمؤتمر حوار الأديان بالأمم المتحدة في١٣ نوفمبر ٢٠٠٨ على هذه العناصر وجاء في خطابه: (في منطقتنا يعمل أيضا أولئك الذين يتغذون على الكراهية، الذين يحاولون تعميق الهوة وتكثيف الحواجز، أولئك الذين يسعون لمحو الآخر والسماح بالقتل.... يمكن لاجتماع رجال الدين أن يُثبت مسؤولية عظيمة، ويمكنهم دعوة أتباعهم، من جميع الأمم والشعوب، إلى خدمة السلام. نعرف خير معرفة أن بناء الجسور سيبطل الحاجة إلى الحواجز. فلنخلص العالم من الإدراك أن هذه المنطقة ترزح تحت لعنة لا يمكن نزعها.... يمكن لحوار الأديان أن يبعث الأمل في معنويات شعوب الحاضر وأن يحضر للرخاء في المستقبل.

كما ركزت وزيرة الخارجية ليفني خلال المؤتمر الصحفي الذي عقدته على هامش المؤتمر على تغيير الخطاب الديني لدعم فكرة السلام مع إسرائيل حيث قالت: (إن النزاع في الشرق الأوسط ليس مصدر التطرف. النزاع والعنف هما نتاج لاستغلال الدين والمؤمنين من قبل القيادة المتطرفة التي تحاول تحقيق مكسبا سياسيا على حساب مؤمنين سُذج.... من أجل تحقيق السلام الحقيقي لا تكفي ورقة الاتفاق. يجب تغيير الرسالة في المساجد وفي المعابد وفي المدارس. التطرف ليس فكرة وهمية. مكافحة المتطرفين هي نضال مشترك لقادة المنطقة.

نقلاً عن (موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية)
http://www.altawasul.com/MFAAR/israel+and+the+middle+east/peace

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ينعكس على مضمون المصطلح فيتبدل حسب المصالح المتضاربة, وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بالتباس المفهوم وابتعاده عن الوضوح والموضوعية.

٥. المقارنة بين مفهومي التسامح والتعايش

في إطار محاولات دفع مصطلح التعايش والترويج له في المجتمعات الإسلامية ظهر اتجاه يقارب بين مفهومي التسامح والتعايش, ويهدف إلى إضفاء الشرعية على مصطلح التعايش, ونظراً لخلو القرآن الكريم من إشارات مباشرة تخدم هذه المقاربة فقد حاول بعض الباحثين تأصيل مفهوم التعايش من خلال الاستدلال ببعض النصوص القرآنية لإثبات جذوره الإسلامية,* وضمن هذا الاتجاه تستخدم نصوص مثل: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ - البقرة : ٢٥٦, (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)١٢٥ – (النحل: ١٢٥). أو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ). (الحجرات:١٣). كما يتم الاستدلال على تعزيز الإسلام لفكرة التعايش بين الطوائف الدينية المختلفة في المجتمع الإسلامي الأول –مجتمع المدينة المنورة - بالعهد الذي كتبه الرسول بين اليهود والمهاجرين والأنصار والمسمى "الصحيفة النبوية", استنادًا إلى ما ذكره الرسول r في هذه الصحيفة بالقول: (وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم).(١)

وثمة نصوص أخرى من القرآن الكريم والسنة النبوية تستخدم للترويج لمصطلح التعايش, ويجري استغلالها لإقناع الجماهير بفكرة التعايش مع الغرب والكيان الصهيوني دون تمييز بين المدلولات المختلفة للمفهوم في الثقافتين العربية والغربية. وفي هذا الإطار تسعى

---

* ورد في القرآن الكريم ذكر لفظ عيشة ومعاشاً ومعيشة ومعايش للإشارة إلى الحياة الدنيا والحياة الآخرة, يقول المولى عز وجل: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) (الزخرف:٣٢) وفي هذه الآية يبين الله – كما يقول ابن كثير - أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهم وغير ذلك.

انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم, جزء ٤, ص ١٦٠.

(١) محمد أبو القاسم حاج حمد : العالمية والتعددية والآخر وشرعة السيف (مقال) http://www.alsahafa.info/index.php?type=3&id=2147488104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعض الاجتهادات المتعسفة لإثبات التطابق بين مفهومي "التسامح" و "التعايش"* في الإطارين الإسلامي والغربي مع محاولة توليد فكرة "التعددية" من بعض النصوص القرآنية بوصفها عنصراً من عناصر التعايش الحضاري, وصورةً من صور التسامح الإسلامي.

ومن المؤكد أن التسامح أي السهولة والتيسير تمثل قيمة إسلامية أكد عليها النبي r، على الرغم من أن مصطلح "التسامح" لم يرد في أي نص قرآني, إلا أن السنة النبوية أشارت إلى التسامح في المعاملات في قوله r: (رحم الله عبداً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى).[١] حيث تعني السماحة: الجود, والتسامح التساهل والتيسير.[٢] ويقال عن الشريعة الإسلامية أنها سمحة أي فيها يسر وسهولة, حيث نهى الرسول r عن الغُلو والتشدد والتكلف والرهبنة ومصادمة الفطرة وحرمان الجسد، ودعا إلى الاعتدال، وتهذيب الفطرة وإشباع حاجات الإنسان.[٣]** وهذه المعاني كلها تعبر عن تأكيد الإسلام على التسامح بوصفه تيسيرًا وتسهيلاً في العبادات والمعاملات على حد سواء, وهذا يوضح أن مصطلح التسامح كمفهوم إسلامي لا يحمل أي عنصر من عناصر مصطلح التعايش بالمعنى الغربي, مما يجعل المقاربة بين مفهومي التعايش والتسامح نوعًا من التساهل في مفاهيم الإسلامية.

من جهة أخرى يمكن تفنيد المحاولات المتعسفة التي تسعى إلى تأصيل مفهوم التعايش إسلامياً, وذلك من خلال تحليل عنصرين رئيسيين من عناصر مصطلح التعايش وهما "السلام" و " قبول الآخر", حيث نجد أن هناك تصادم بين المدلول الإسلامي والمدلول الغربي لهذين العنصرين. فالمعنى الإسلامي للسلام أو "السلم" كما ورد في القرآن الكريم لا يتطابق في مدلوله مع المعنى الذي يحاول الغرب تصديره إلى المجتمعات العربية, فقد بين القرآن معنى

---

* من ذلك ما ذكره عابد السفياني قائلاً: (... ومن ملامح الثقافة الإسلاميّة العميقة، الوسطيّةُ والاعتدال ونبذ التطرف والغلوّ في كلّ مناشط الحياة، وهذه السِّمَةُ جعلت الثقافةَ الإسلاميّة تقبَلُ الآخَرَ ولا تُقصيه أو تضطهِدُهُ، فهي ثقافة تُؤمن بالتعدّديّة " وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ "(البقرة: ١٤٨)

راجع عابد بن محمد السفياني: موقف أهل السنة والجماعة من المصطلحات الحادثة ودلالاتها, دار طيبة للنشر والتوزيع, الرياض, ط١, ٢٠٠٦.

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري وابن ماجه في سننه, وأخرجه مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد عن محمد بن المنكدر بالقول: (أحب الله عبداً سمحاً إن باع سمحا إن ابتاع سمحا إن قضى سمحاً إن اقتضى.

(٢) ابن منظور: لسان العرب, الجزء ٢, دار الحديث, القاهرة, ٢٠٠٣, ص ٦٧٣.

(٣) أبو لبابة الطاهر صالح حسين: السنّةُ النبويّةُ ونِسْبَتُهَا من الثقافةِ والحضارة الإسلاميّتين, الندوة العلمية الدولية الثالثة للحديث الشريف حول :القيم الحضارية في السنة النبوية الأمانة العامة لندوة الحديث.
www.nabialrahma.com

** يقول النبيّ r: (إن الدين يُسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه).
أخرجه البخاري ــ الإيمان ــ باب الدين يُسر ــ متن فتح الباري : ١١٦/١(٣٩).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السلم في آيات عديدة ووضع له شروطاً حرمت قتال غير المسلمين الذين لم يقاتلوا المسلمين أو يصدوهم عن دينهم,* ويبين قول الله تعالى: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله), أن معنى السلم كما جاء في القرآن لا يتطابق مع معنى السلام كأحد مفردات التعايش في الرؤية الغربية, فطبقاً للمعنى القرآني ليس على المسلمين أن يجنحوا للسلم مع من لم يجنح له واغتصب أراضي المسلمين, وإعمالاً للتوجيه القرآني لا ينبغي أن نجنح للسلم مع جميع الدول التي تحالفت على غزو واحتلال بلدان إسلامية بدعوى محاربة الإرهاب إلا إذا جنحوا للسلم وامتنعوا عن قتال المسلمين.

أما العنصر الثاني وهو "قبول الآخر" فإنه يزيد أكثر من التباس مفهوم التعايش ويبعده كثيراً عن المفاهيم القرآنية, حيث يعني القبول لغوياً: الرضا بالشيء عن طيب خاطر وميل النفس إليه.(١) وبذلك يشير مدلول قبول الآخر إلى إقرار أهل الديانات المخالفة للإسلام على دينهم, وهذا مخالف لمبدأ "البراءة" الذي أقره القرآن في قول الله تعالى: (لكم دينكم ولي دين). (الكافرون:٦) حيث اقتضت هذه الآية البراءة** التامة من المخالفين للإسلام وعدم الموافقة على غيره من الديانات, وغاية البراءة التنصل من موافقتهم في دينهم, مما يخالف مصطلح قبول الآخر الذي يرمز إلى الرضا بالآخر وهو شكل من أشكال الموالاة المنهي عنها بنص القرآن, (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين). (آل عمران: ٢٨) غير أن هذا لا ينفي أن الإسلام يعترف بوجود الآخر ويعترف بحقوقه على أساس المساواة الإنسانية, كما أنه يقر الاختلاف على أساسٍ من قاعدة (لا إكراه في الدين)، ويقر حق الإنسان في اختيار العقيدة، مع إلزام المسلم بإعلان مخالفة هذا الاختيار وعدم قبوله.

بناءً على ما تقدم يبدو أن مصطلح التعايش كما يطرحه الخطاب الغربي وكما ينقله عنه بعض المستغربين لا يمكن قبوله بوصفه مفهوماً قرآنياً, علاوة على أن الاختلاف بين مفهومي

---

* من شروط السلم في الإسلام: تحريم قتال من طلب الأمان من الكفار, وتحريم قتال المنافقين الذين يظهرون الإسلام, ويبطنون مخالفته, فأمرهم متروك لله, وتحريم قتال من لا قدرة له على القتال, الصفح عن المخالفين من موقع القوة, تقديم الوسائل السلمية على وسائل القتال, مثل تقديم المواثيق وقبول الصلح, من موقع القوة.

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٤٨٨.

** ذكر ابن كثير في تفسير سورة الكافرون حديث النبي الذي رواه الإمام أحمد عن الحارث بن جبلة, قال: قلت يا رسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي, قال: (إذا أخذت مضجعك من الله فاقرأ (قل يا أيها الكافرون) فإنها براءة من الشرك. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم, المجلد ٤, مؤسسة الريان, بيروت, ١٩٩٦, ص ٧٢٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"التعايش" - في المدلول الغربي- و"التسامح" - في المدلول الإسلامي- واسع وشاسع مما ينفي تطابق المعنيين, وبهذا تبدو محاولات المقاربة بينهما مجرد وسيلة لخلق تصور فكري خاص بمصطلح التعايش لا يقيم اعتباراً للضوابط اللغوية, حيث يستعير مصطلح التعايش من النسق المعرفي الغربي بطريقة القياس القائم على التوهم بأن هناك تماثل بيه وبين التسامح الإسلامي, مما يمثل خطورة على منظومة المفاهيم الإسلامية, خصوصاً مع ما يعتري مفهوم التعايش نفسه من غموض, يظهر أحياناً في استخدام المصطلح داخل إطار علم الاجتماع بأكثر من معنى سواء داخل المجتمع الواحد أو في المجتمعات المختلفة, لذلك نعتقد أن الحفاظ على التميز الذاتي للأمة الإسلامية يدعونا إلى إقصاء مصطلح التعايش بمدلوله الغربي, مع التأكيد أن محاولات إضفاء الشرعية الإسلامية على هذا المصطلح لا يمكن الاستهانة بها لما لها من خطورة على الوعي الإسلامي وتشويه منظومة المفاهيم الإسلامية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المراجع

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم, المجلد ٤, مؤسسة الريان, بيروت, ١٩٩٦.

٢. ابن منظور: لسان العرب, المجلد الأول, دار الحديث, القاهرة, ٢٠٠٣.

٣. أبو لبابة الطاهر صالح حسين: السنة النبوية ونسبتها من الثقافة والحضارة الإسلاميّتين, الندوة العلمية الدولية الثالثة للحديث الشريف حول :القيم الحضارية في السنة النبوية الأمانة العامة لندوة الحديث. **www.nabialrahma.com**

٤. أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية, مكتبة لبنان, بيروت, ١٩٨٢

٥. جريدة *الشرق الأوسط: الثلاثاء ٣ مارس ٢٠٠٩*

٦. عبد العزيز بن عثمان التويجري: الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين, المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة, ١٩٩٨ http://library.moe.edu.kw/ipac20/ipac.jsp?session

٧. علي الطراح: الإسلام وتحديات العولمة, (مقال) جريدة الشرق الأوسط, ٢٠٠٤/٢/٢٨

٨. علي جمعة وآخرون: بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية, المجلد ١, المعهد العالمي للفكر الإسلامي, ط١, ١٩٩٨

٩. علي شريعتي: العودة إلى الذات, ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا, الزهراء للإعلام العربي, القاهرة, ١٩٨٦

١٠. علي ليلة: مشروعية بناء علم الاجتماع من منظور إسلامي, ندوة علم الاجتماع من منظور إسلامي, مركز الدراسات المعرفية, ٢٠٠٧/٢/٢٠.

١١. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٤.

١٢. مجمع اللغة العربية:المعجم الوسيط, ج١, المكتبة الإسلامية, استانبول, ب.ت

١٣. محمد أبو القاسم حاج حمد : العالمية والتعددية والآخر وشرعة السيف (مقال) http://www.alsahafa.info/index.php?type=3&id=2147488104

١٤. محمد مسعاد: (مقال) :أوروبا والأقليات مستقبل التعايش على المحك. موقع مؤسسة دويتشه فيله": صوت ألمانيا المرئي والمسموع والمقروء إلى العالم الخارجي http://www.tzafonet.org.il/uploads/community/aldad/yadem.htm

١٥. محمد نظيف: الهجرة السرية وتفشي ظاهرة الزواج المختلط: مداخلة بندوة حول الزواج في العلاقات المغاربية الأوروبية، كلية الحقوق وجدة المغرب. http://sites.univprovence.fr/agirod/masni/fatema/mohammad%20nazif.htm

١٦. منصور زويد المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان, كتاب الأمة, وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية, ط١, قطر, ١٩٩٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١٧. منير البعلبكي: قاموس المورد, دار العلم للملايين, ١٩٨٤
١٨. موقع حركة SIOE : http://sioe.wordpress.com/about
١٩. موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية
http://www.altawasul.com/MFAAR/israel+and+the+middle+east/peace
٢٠. موقع: http://www.america.gov/st/washfile-arabic/2004 بتاريخ ٩ إبريل ٢٠٠٤
٢١. نبيل شبيب:هل توصل محاولات علمنة الإسلام إلى نتيجة؟ دعوة التعايش مع الآخر تتناقض مع العمل لتطويعه ٢٠٠٩/١/١١
http://www.midadulqalam.info/midad/modules.php?name=News
٢٢. نبيل نعمة الجابري: التعايش في حوار المتحضرين (مقال), ٢٠٠٩/١/٨ , www.alnoor.se/author.asp?id=1710 - 74k
٢٣. هبة رؤوف: الاستقامة, (مقال) على موقع إسلام أون لاين .http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mafaheem-5.asp
٢٤. يمنى طريف الخولي: فلسفة كارل بوبر, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ط٢, القاهرة, ٢٠٠٣.

25.Daniel Pipes: Europe or Eurabia? (IN)
www.danielpipes.org/5516/europe-or-eurabia-108k

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كلمة أ.د. علي ليلة

بسم الله الرحمن الرحيم.. أتفق مع ما قالته د . حنان عبد المجيد.

بداية العالم العربي الجليل "ابن خلدون" قدم نظريته في الخلق بشكل عام وهي نظرية تقف أمام النظرية الداروينية إلى حد كبير، حيث قال إن الله خلق الكون على طبقات: طبقة الجماد وأوجد فيها عنصر إمكانية استنفار "عنصر الحيوية" ففي لحظة معينة يمكن أن يتحرك الجماد ويطيع الله إذا أمره بشيء {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (سورة هود: ٤٤). العنصر الثاني هو عنصر النبات وفيه الحياة ولكنه ساكن غير متحرك. والطبقة الثالثة هي الحيوان وفيها الحركة والحيوية، ثم الطبقة الرابعة وهي الإنسان فيها الحياة وفيها الحركة والعقل، هنا أعطي الله الإنسان - الطبقة العليا - العقل لأن الله حين خلق الوجود الإنسان لا يستطيع أن يتعامل مع مادياته لكنه بعقله يستطيع أن يحول هذا العالم المحيط به ومادياته إلي رموز ويتعامل مع الرموز، ومن ثم ومن أجل أن يسيطر على هذا العالم فهو يتعامل مع الرموز ويطبقها على هذا العالم.

تعريف المفهوم في علم الاجتماع:

المفهوم في تعريفه الأساسي من داخل علم الاجتماع هو رمز يشير إلى متغير واقعي، والمتغير الواقعي هو موضوع معين وهذا الموضوع له صفات معينه وسمات معينه إلى حد كبير. عندما ننظر إلى المفهوم نجد أن العقل يحول العالم المحيط به إلى رموز كي يتعامل بها، فإذا قص أحدهم حكاية هو يحكيها فى كلمات والعقل (المستمع) يحولها إلى رموز بصورة مستمرة وهذا إبداع العقل. من هنا الرمز هو المفهوم والمفهوم أو الرمز هو الوحدة المحورية فى الأبنية النظرية.

في العلم بشكل عام ننظر إلى كل الأبنية النظرية (القضية، النموذج، النظرية، بنية المعرفة) نجد الحجر الأساسي فيها هو المفهوم، ما دمنا بنينا المفاهيم فمن ثم كل الأبنية النظرية تتدرج منها بشكل عام.. المفهوم كائن حي عضوي ينشأ ويتطور ويموت وكثير من مفاهيم علم الاجتماع ماتت (التطور، التقدم والانتشار) لم نعد نتحدث عنها أما الآن تطرح مفاهيم جديدة. أحياناً نراقب مفهوم وهو فى حركته داخل التاريخ على سبيل المثال: مفهوم المواطنة أول ما ظهر عند الرومان كان يقصد به السادة ثم وسع ليضم غير العبيد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وغير المرأة ثم المرأة فاتسع المفهوم والآن المفهوم بدأ يتآكل فبدأنا نسمع عن المواطنة العالمية على حساب المواطنة القومية فهناك انفلات للمفهوم .

التعريف البنائي والتعريف الوظيفي للمفهوم:

عندما نعرف المفهوم نعرفه تعريفاً بنائياً وتعريفاً وظيفياً. التعريف البنائي عندما نقول إن التراث هو مجموعة الثقافات المادية وغير المادية التي تتدفق من التاريخ إلى الإنسان الحالي فعندما أعدد عناصر التراث فأنا أقدم تعريف بنائي، فحين أقول ما هي المعرفة؟ المعرفة هي التي تضم المعارف الفلسفية والأدبية والدينية ... الخ، فهذا تعريف بنائي. لكن حين أقول تعريفاً وظيفياً للتراث؛ فالتراث هو الذى يحفظ الهوية (وظيفة) التراث هو الذى يدعم الانتماء، هذه هي بعض الملامح العامة للمفهوم .

فالمفاهيم عبارة عن ساحة من الممكن أن يحدث عليها صراع، مفهوم كالديمقراطية بعض الناس يعتبره حرية التعبير، البعض الأخر يعدها المشاركة فى القرار وآخرون يرونها العدل الاجتماعى وتوزيع الفرص بشكل عادل فى المجتمع. ما معنى هذا؛ معناه أن المفهوم من الممكن أن يحدث صراع على ساحتة كل يريد ان يجذبه إلى ساحته. أيضاً أحياناً يكون هناك مفهوماً ونسلب منه الما صدق الخاص به.

مثلاً العقل في الفكر الإسلامي هو جوهر روحاني خلقه الله فى بدن الإنسان، وفي الفكر الغربي العقل هو الذى يستطيع استنباط المفاهيم والأحكام من ذاته. إذاً المفهوم واحد لكن أخذنا مضمونا ووضعنا أخر بداخله. أحياناً يُحَرَّف المفهوم بأن يتم تعريفه بعنصر ثانوي فيه ونترك العنصر الرئيسي، مثلاً مفهوم المرأة من الممكن القول أن المرأة هي التي يمكن أن تصبح أماً أو أقول المرأة الرشيقة فاستخدم بذلك تعريف ثانوي، أي أنه من الممكن أن يعرف المفهوم ببعض عناصره الثانوية ويترك البعد الرئيسي له. كما قلنا أحيانا يحرف المضمون فعندما قام صراع بين د. طه حسين والشيخ حسن البنا في تعريف المواطنة نجد د. طه حسين يعرف المفهوم على أن الوطن داخل حدود معينة وتسود فيه ثقافة معينة وما إلى ذلك... أما الشيخ حسن البنا يعتبر الوطن هو ما يتسع لكل مسلم فحصل هنا خلاف حول المفهوم.

أحياناً يعرف المفهوم من الداخل مثلاً مفهوم الأسرة في الإسلام: يعني الزوج والزوجة الذين ينجبا أولاد لكن الآن المفهوم تغير في الغرب فيقال أن مفهوم الأسرة هو زواج رجل برجل أو امراة بأمرأة أو رجل وامرأة يعيشان مع بعضهما بدون عقد زواج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأصبحت الأسرة الطبيعية مجرد عنصر من العناصر وبدأت تتآكل، هذا المفهوم باقي ولكن يضخ فيه مضمون أخر.

هذه هي التحريفات التي تحدث للمفهوم ونسميها العبث بالمفاهيم. حين ننتقل بالحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ما هو موقف هاتين الحضارتين من المفاهيم بشكل عام؟

عندما نتأمل الحضارة الغربية نجد أن المفاهيم لديها ذات طبيعة تجريبية ومن ثم فالأبنية النظرية التي تبنى عليها ذات طبيعة تجريبية.. ليس هناك نموذج نظري استمر فى علم الاجتماع وهناك تفريغ تاريخي وجغرافي بمعنى أننا نمر بالنظريات الكلاسيكية (وهى النظريات الشاملة) ثم هناك نظريات المنمنمات كالتفاعلية الرمزية والتبادلية والسلوكية وما إليها هذا مرحلة ثانية ثم انتقل إلى مرحلة ثالثة ما بعد الحداثة كل مرحلة تطرح مفاهيم جديدة وتشكيلات نظرية جديدة حتى إن عالم مثل "كوفمان" (عالم كبير في علم الاجتماع) يقول نحن نريد تعريف ما هو علم الاجتماع؟ وبالرغم من مرور تلك السنوات على ممارستنا علم الاجتماع من خلال تعريفاته السائدة يأتي "كوفمان" ويرى أنه بحاجة إلى التعريف ثانية. هنا نقول أن الطبيعة التجريبية للتنظير الغربى ابتداء من المفاهيم انتقالاً للنماذج انتهاءً بالنظريات سواء النظريات الجزئية أو الشاملة . عندما ننظر للمفاهيم فى النظرية الغربية نجد برغم هذه الطبيعة أن لها ثلاث مصادر:

١. الثقافات العامة: كثير من المفاهيم فى علم الاجتماع مأخوذة من الثقافة العامة لكن يعاد صياغتها بشكل علمي بحيث تشير لمتغير معين ويمكن إدخالها فى قضايا لكن مصدرها رجل الشارع الذى نطق بها وأخذنا نحن هذه المفاهيم وحولناها إلى مفاهيم علمية .

٢. بعض المفكرين يبدع وينشئ مفهوم معين: مثال: مفهوم الطبقة عند "ماركس" أو الاضطراب أو فائض القيمة. مفهوم البلوريتاريا نفسه لا نجده (الطبقة العاملة بالمفهوم الماركسي) إلا عند ماركس. عندما ننظر إلى "باريتو" نجده أوجد مفهوماً عظيماً وهو مفهوم الرواسب وقد عمل ثورة لكن علماء الاجتماع لم ينتبهوا له جيداً فلم يأخذ هذا العالم حقه .

٣. المفهوم الثالث: وفقاً للنظرية الغربية هو من نظام عقلي أخر فحين تكلم (**هربرت سبنسر H. Spencer**) عن الطاقة وتحولاتها أتى بها من علم الطبيعة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبدأ يطبقها في علم الاجتماع وكيف أنها تتحرك فى المجتمع وتنقل إمكانيات وقدرات إلى أن تطور المجتمع بقدراته بشكل عام.

هنا عندما نتأمل هذه المفاهيم نجدها ليس أن ليس لها قبول عام فماركس يقول طبقة ويعرفها بشكل معين، ويأتي أخر ويأخذ الطبقة ويعرفها بشكل أخر، من هنا تختلف المفاهيم من حيث دائرة الاعتراف بها من قبل الجماعة العلمية.. أحياناً هناك مفاهيم تكتسح ككلمة مجتمع فهذه لا خلاف عليها، لكن مفاهيم أخرى يتم الاختلاف حولها وتكون دائرة الجماعة التي تعتقد فيها والتي توافق عليها محدودة للغاية، وهناك مفاهيم وسط وما إلى ذلك . من هنا نجد الترسانة المفاهمية الغربية - برغم أننا تعلمناها واستوعبناها وعملنا بها إلا أنها ترسانة من المفاهيم المركبة وبالتالي التنظير عليها لن يغطي نتائج جيدة، مما ترتب على ذلك أننا لم نصل إلى الآن فى علم الاجتماع إلى قانون يقول أنه كلما حدث كذا وكذا لا يحدث كذا، فيمكن على سبيل المثال أن تحدث كل الظروف المؤسسة للثورة والتمرد أو للاحتجاج ولا يحدث، لماذا؟ لأن البنية النظرية ليست قوية، ليست من القوة بصورة كافية.

هذا في من جانب علم الاجتماع من المنظور الغربي، عندما نأتي إلى الحضارة الإسلامية ما هي مصادر المفاهيم الإسلامية؟

أولاً: نجد أن هناك عدد من المفاهيم الثابتة لا خلاف عليها. كل المفاهيم التي مصدرها الله سبحانه وتعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (سورة البقر: ٣١)، كل هذه الأسماء كانت لأشياء، لعناصر معينه وعرفها سيدنا آدم عليه السلام، فهذا لا خلاف عليه كعنصر من عناصر الثبات فى المفاهيم، فالبنية المفاهيمية فيها بعد ثابت .

هناك بعد أخر هو قدرة الإنسان على توليد المفاهيم بحكم الاستخلاف، وهناك عالم اسمه أمريكي "جو هان" لمس هذه اللحظة حين يرى الإنسان تحدث له تجليات حول فكرة معينه، هذه اللحظة صورها هذا العالم الأمريكي وهو يتحدث عن العبقري كيف يصل إلى مرحلة العبقرية فقال إنه يقفز فوق منطق الأشياء ويرى روابط بين الأشياء لا يراها الآخرون، لذلك يقال إن العلماء ورثة الأنبياء، فنحن حين ندرس نقول إن للنبي كاريزما (فكرة الإلهام أو البصيرة النافذة) هنا العالم لدية جزء من هذه الخاصية هذا الجزء هو الذى يمكنه من الإبداع وهنا من حق العقل الإنساني بحكم عملية الاستخلاف أن يبدع مفاهيم لها قدر من الثبات طالما أنها لا تتناقض مع المبادئ الأساسية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المستوى الثالث من استنباط المفاهيم التراث الإسلامي، فيمكن الوصول إليها من خلال القياس والاجتهاد بصورة ما. هنا عندما نقارن مصادر المفاهيم فى التراث الاسلامى أو المرجعية الإسلامية نجد أن لها قدراً من الثبات أقوى كثيراً من المفاهيم التي تستند للمرجعية الغربية بصورة عامة؛ لذلك لو عملنا على المفاهيم الخاصة بالمرجعية الإسلامية من الممكن أن نصل إلى أبنية نظرية لها قدر من الثبات لان أحجارها وعناصر بنائها قوية وثابتة إلى حد كبير وشكراً.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفاهيم الاجتماعية في القرآن

أ. د. صلاح عبد المتعال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محتويات:-

- القرآن منهـــــج.
- نوعية الحياة الاجتماعية في القرآن.
- تعريف المفاهيم.
- المفاهيم ومحاور البناء الاجتماعي.
- المفاهيم والقيم الاجتماعية.
- في مفاهيم العقيدة.
- في بناء المجتمع والعلاقة بالبيئة.
- في المعرفة والعلم.
- في الاقتصاد والمنظومة الإنتاجية والاستهلاكية.
- في السياسة والشريعة والقانون.
- في مفاهيم العلاقات القرابية والأسرية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المفاهيم الاجتماعية في القرآن

القرآن منهج

- القرآن في حد ذاته كتاب منزل لتنظيم الوجود الاجتماعي للإنسان المستخلف على الأرض.
- وهو منهج ودليل إرشادي لهداية الإنسان إلي أفاق التقوى **{**الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (سورة البقرة: ١-٢).
- ولن تتحقق التقوى إلا بقراءة آيات القرآن تلاوة وحفظاً وفهماً **{**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**}** (سورة العلق" ١)، والمعرفة بآفاق العلوم الكونية والاجتماعية والنفسية.
- إذا كان عالم الأرض جزيء من المنظومة الكونية، وأستخلف الله سبحانه الإنسان على إعمارها وكان غاية خلقه التعرف على خالقه بأداء وحسن عبادته **{**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**}** (الذاريات: ٥٦)، والعبادة هنا بمعناها الواسع تستوعب كل ضروب السلوك الإنساني من عبادات ومعاملات.
- ويتوجه المنهج القرآني إلي منظومة العلاقات المتعددة بين الإنسان وخالقه وبين الإنسان وعالمه الكوني والبشري أو الاجتماعي. وتدور المنظمات الاجتماعية حول عدد من المحاور الجوهرية التي لا يخلو منها أي مجتمع بشري علي مدى الأزمنة والأماكن..

١. منظومة الفكر السائد أو المذهبية أو الأيديولوجية (فلسفات وعقائد وأديان).

٢. البنية السكانية للمجتمع.

٣. العلاقة الإيكولوجية أو البيئية.

٤. المعرفة والعلم والقدرة على توظيفها أو استخدامها (التكنولوجيا).

٥. المنظومة الاقتصادية أو العلاقات الإنتاجية.

٦. المنظومة السياسية والقانونية.

٧. الأسرة ومنظومة القرابة " العلاقات العاصبة ".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا فضلاً عن تنظيمات اجتماعية أخري منبثقة من هذه المحاور كالمنظومات التربوية والأمنية والإعلامية والترفيهية والثقافية والفنية التي علا شأنها في المجتمعات الحديثة..

وتصب المحاور الأساسية وغيرها من أنساق اجتماعية فرعية في بوتقة النظام الاجتماعي للأسرة حيث يتم التفاعل بين الفكر والدين وأساليب التنشئة والثقافة والتقاليد والأعراف والآداب والقيم وأنماط السلوك الإنتاجية والاستهلاكية ومشاعر المودة والصحبة في العلاقات الزوجية ووشائج القرابة.

نوعية الحياة الاجتماعية في القرآن:-

ويمكن على هدي ما سبق أن نشير إلى أن تلك المحاور هي المجالات التي تتم فيها وبها معالم العمران التي أستخلف عليها الإنسان، ليس لتيسير حياته فقط وبلوغه المستوى اللائق من الرخاء أو الحياة الطيبة، بل لأنها في نفس الوقت امتثالاً وطاعة لله سبحانه، من أجل أن يقرن الإيمان وطاعة لله بالعمل الصالح. {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (النحل: ٩٧).

وقد يعني بالحياة الطيبة هو تميز نوعية من الحياة الإنسانية عن نوعيات حياة أخري تطرحها مذاهب دينية أو سياسية أو اقتصادية أخري، منها ما ينحصر اهتمامها في قيم اللذة والاستمتاع وبلوغ رفاهية من المعيشة على حساب القيم الإنسانية والأخلاقية أو تهميش أو قطع خطوط التواصل مع خالق الكون الذي أنزل كتبها السماوية وختمها بالقرآن الكريم من أجل هداية الإنسان الذي أستخلفه على إعمار الأرض وللتنمية المستدامة بالمصطلح المعاصر.

ويمكن أن نتفق جزئياً مع أولج زينام **Oleg Zinam** حول أهمية العلاقة بين نوعية الحياة ونوعية الإنسان والتكنولوجيا للارتقاء بمستوى التنمية الاقتصادية، إذ أن التنمية الاقتصادية هي جانب أساسي لكل أبعاد التنمية الاجتماعية ولكن ليس أهمها، فهدف التنمية الاقتصادية هو تحقيق الرخاء الاقتصادي الذي هو مجرد جانب واحد من الرفاه أو السعادة البشرية التي تطلق عليها **Quality of life**

وبالتالي لا يمكن فصل نوعية الحياة عن نوعية الإنسان التي تحدد قدرته أو كيف يستخدم المجتمع الهياكل التنظيمية وبناءات السلطة لاستثمار موارده البشرية والطبيعية تماماً كاستثمار العلم والتكنولوجيا. وما هو الهدف من هذا الاستثمار. وقد نضع هذا المعنى بصياغة أخرى "أن نوعية الإنسان هي معرفة غايته من تسخيره لموارد الطبيعة والعلمية والتكنولوجية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واستثماره للموارد البشرية وذلك بوسائل التنظيمات الاجتماعية والسياسية التي أصطنعها المجتمع الذي يعيش فيه.

أما إبراهام ماسلو ١٩٠٨ – ١٩٧٠ فيربط بين أولويات الترتيب الهرمي للحاجات الإنسانية والأجزاء المكونة لنوعية الحياة وعلاقة ذلك كله بالمكونات المتداخلة في المنظومة الكلية للتنمية، وما أوردناه سلفاً عن المحاور الجوهرية لبنية كل مجتمع، يتفق مع سبقٌ "ماسلو" لتصنيف المجالات الأساسية للتنمية والأجزاء المتناظرة لنوعية الحياة كالتالي: -

- الأيكولوجي ويعالج سلامة البيئة الطبيعية.
- العسكري ويختص بالأمن والسلام.
- الاقتصادي ويركز على الرخاء المادي للإنسان.
- السياسي ويعالج قيم الحرية وحقوق الإنسان وكرامته.
- الاجتماعي ويقوم على التوافق الاجتماعي والعدالة.
- الحضاري ويقوم على الحفاظ وتعزيز القيم الحضارية.
- ولم يغفل "ماسلو" كغيرة التنمية الأخلاقية التي تؤدي بالضرورة إلي الكمال الأخلاقي.

وقد تؤدي هذه الإفادة إلي الانتقال من العناصر المكونة لنوعية الحياة إلى دراسة نوعية الإنسان. والسؤال الذي يطرح نفسه ما هي نوعية الحياة المرغوب فيها. ويحتاج هذا توضيح مفهوم النوعية الأمثل أو الأفضل للحياة. وقد يقودنا هذا إلي التساؤل حول، ما هو الهدف النهائي الذي يجب الوصول إليه من تحقيق متطلبات نوعية الحياة والوصول إليه. فالإجابة المجملة "أن كل تحسينات نوعية الحياة يجب أن تصل إلي الكمال الأخلاقي للإنسان..

فإذا كان الهدف النهائي لتحسين نوعية الحياة هو الكمال الأخلاقي، والصعود التدريجي تجاه الوضع المثالي لإنسانية الإنسان، فإن (نوعية الحياة الأمثل) هي التي ستؤدي إلي تحقيق هذا الهدف الذي لا تختلف من وجهة نظر "ماسلو" عليه أغلب عقائد وديانات العالم وتقليد الحضارات اليونانية والرومانية.

إن مثل هذه المراجعة التي يتناولها القليل من علماء الإنسانيات، والتي بدأت تتردد بشكل واضح من أروقة الفكر الغربي المعاصر خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تجعل الإسلام وقرآنه الكريم في المقدمة إزاء رسم ملامح الشخصية السوية التي تجعل من التنمية الأخلاقية هي العصب الرئيسي لترشيد الأبعاد التنموية الأخرى خاصة المستغرق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منه في التعظيم المبالغ لقيم المنافع المادية الهادفة للرفاهية بغض النظر عن الضوابط الأخلاقية والدينية.

تعريف المفاهيم: -

وقبل أن نحاول كشف أهم المفاهيم الاجتماعية في القرآن الكريم، حري بنا التعريف بمصطلح المفهوم **Concept** فهو لغوياً حسن تصور المعنى وجودة استعداد الذهن للاستنباط وهو منطقياً، مجموعة الصفات والخصائص الموضحة لمعني كلي ويقابله الماصدق (المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية) ويعني في عمومه الفكرة أو النظرية، وهو يشير إلى العلاقات الوصفية للموضوع أو الظاهرة.... وينظر إليه في علم الاجتماع بأنه المستوى الأدنى للتجريد أكثر من أن يكون نظرية، وقد يشكل جزءاً جوهرياً من أي نظرية حيث إن النظريات تتكون من المفاهيم المستخدمة.. ولا يعني أن المفاهيم غير قابلة للتغيير ولذلك كانت قضية المفاهيم هي الشغل الشاغل لعلم الاجتماع(١)

ويعرف أيضاً من المنظور السيكولوجي بأنه المدرك الكلي أو المعنى المجرد، فهو الماهية المجردة عن المادة الشخصية وعن الصفات الملازمة له. فهو إدراك عقلي كلي للمعرفة التي لا تدرك بالحواس ولكنها نتيجة لإعمال الفكر.(٢)

المفاهيم ومحاور البناء الاجتماعي: -

ومن العسير أن نتناول المفاهيم الاجتماعية في القرآن الكريم بمفردات متفرقة بين السور القرآنية، ولكن يمكن بالنسبة للتصنيفات الموضوعية حسب المحاور الجوهرية للبناء الاجتماعي للمجتمع الإسلامي التي ذكرت سلفاً وقد يتكامل مع ذلك التصنيف الخاص بالترتيب الهرمي للحاجات الإنسانية، والعناصر المكونة لنوعية الحياة، حيث إن القرآن الكريم هداية للإنسان يصبغه بنوعية الحياة الطيبة التي تحيط بها كلمة التقوى كقيمة جوهرية للفرد، وترشيد شئونه في تفاصيل حياته اليومية، وتنظيم شئون المجتمع في كلياته الاقتصادية والسياسية والمعرفية، وتحديد مسئولياته تفصيلاً بإزاء نسق الجماعة القرابية والأسرية باعتبارها البوتقة الاجتماعية الصغرى التي تلخص شئون المجتمع الأكبر الثقافية والمذهبية والبيئية والتربوية والاقتصادية والسياسية..

---

(١) أنظر: G.Duncan Mitchell ,A Dictionary of Sociology,Routlege&Kegan Paul 1969.

(٢) أنظر: زكي بدوي، قاموس العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان ١٩٨٢

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفاهيم والقيم الاجتماعية:-

لا تخلو المفاهيم الاجتماعية الواردة في القرآن الكريم من القيم الإنسانية والاجتماعية الرفيعة، حيث إن هذه القيم هي المضمون الحقيقي لهذه المفاهيم، ولكن كيف يمكن أن نقتفي أثر هذه القيم بمؤشرات ظاهرة يمكن دراستها حيث ثمة صعوبة بسبب خاصيتها التجريدية. ولتيسير الأمر بقدر الإمكان، فالقيم طاقة اجتماعية أقرب إلى استحالة تجسيدها بالمشاهدة أو الملاحظة المباشرة إلا من خلال أثارها في أنماط سلوك أو عادات أو تقاليد، فحقيقتها في مستقر الفكر وقلب الوجدان، والكشف عنها يشكل تحدياً نظرياً ومنهجياً، خاصة أنها تتعرض للتغير من حيث تمجيد بعضها **Upgrading** أو التقليل من شأنها **Downgrading** طبقاً لإعادة توزيعها **Redistribution** أو أعادة ترتيبها **Value Rescaling** داخل تنظيمها.(١)

"والقيم الاجتماعية هي مجموعة من المعتقدات التي تتسم بقدر من الاستمرار النسبي، والتي تمثل موجهات للأشخاص نحو غايات أو وسائل لتحقيقها..... أو هي أنماط سلوكية يختارها ويفضلها هؤلاء الأشخاص بديلاً لغيرها..... وتنشأ هذه الموجهات عن تفاعل بين الشخصية والواقع الاجتماعي الاقتصادي الثقافي..... وتفصح القيم عن نفسها في المواقف والاتجاهات والسلوك الفعلي والعواطف التي يكونها الأفراد نحو موضوعات معينة".(٢)

ولمحاولة تقريب مضمون القيم الكامنة في المفاهيم الاجتماعية فيمكن أن نعالج متغير القيم في ضوء الاتجاه التحليلي للتكلفة والعائد الاجتماعي للطاقة القيمية، أي عناصر التكلفة وفاعلية تأثير القيم من النواحي الاجتماعية، فإذا كانت قيمة العطاء علي سبيل المثال من خصائص أحد الأشخاص فأنه يخصص مصادره وطاقته، لتحقيق ذلك، قدراً من ماله ووقته وجهده والتضحية براحته، وغير ذلك من أنواع التكلفة، كما أن اقتناعه وإيمانه بالعطاء أو البذل أو تمسكه به وإصراره عليه يؤدي إلي مردود أو عائد اجتماعي على الآخرين وإذا أمعنا النظر في مختلف أنواع القيم فإن لكل منها تكلفة ولكل منها عائد قد يكون مردوداً للشخص نفسه أو الجماعات التي ينتمي إليها أو المجتمع الذي يعيش في كنفه. فمثلاً استمرار المحافظة علي قيمة المقاومة ضد الغاصب المحتل تتأثر بتكلفتها البادية في الجهاد النفس والمال

---

(١) أنظر: صلاح عبد المتعال، أثر تدفق الثروة النفطية على القيم الاجتماعية، الأمم المتحدة، طوكيو & اليونسكو الهرمي في سلم القيم، المركز الإقليمي العربي ١٩٨٢.

(٢) أنظر: محمد علي محمد، مفهوم القيم الاجتماعية " الأسس النظرية والمؤشرات الإجرائية، نفس المرجع السابق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتضحية بالوقت، ويؤثر جدوى عائدها أو مردودها بالضرورة على الوطن الأم في المحافظة على استقلاله وتقدمه. والأمثلة حاضرة للاستجابة لله ورسوله في شأن الجهاد في سبيل الله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (الصف: ١٠-١١)، فقيمة الإيمان إذا وقرت في القلب والعقل فأن تكلفتها باهظة (جهاد شاق وتضحية بالأنفس والأموال) أما مردود وعائد هذه التكلفة فهو في الآخرة، فوز عظيم بالمغفرة وجنات عدن، وفي الدنيا نصر وفتح قريب {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (الصف: ١٢-١٣)..

ويحضرنا مفهوم الحياة الطيبة التي تضمنتها آية ٩٧ في سورة النحل {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}..ومن ثم تعتبر الحياة الطيبة هي النموذج الأمثل والملائم لنوعية حياة المؤمن، غنياً كان أو فقير أو متوسط الحال، باعتبار الشعور بالرضا، بقدر الله، قيمة مضافة إلى الحياة الطيبة كذلك قيمة العمل الصالح، ليس ذلك فقط سنجد أن هذه القيمة الأصيلة تشتمل إضافة إلى الرضا والعمل حزمه من القيم المشتقة أو التابعة، كقيم الصدق والإحسان والإنفاق والخير.. وغيرها مما يتطلب التكلفة بالبذل والعطاء والتضحية بالوقت والمال، ويتلخص مردود ذلك كله في حياة مرضية في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة.

في مفاهيم العقيدة:-

الإسلام عقيدة وشريعة وهو دين وثقافة وأسلوب حياة، هو أمة ودولة لها شريعتها المتكاملة والمتطورة لتدبير شئون الدنيا والتجاوب مع حاجات الإنسان لكي يحيا حياة كريمة خاضعة لسيادة الخالق وحده.. ويعتبر التوحيد بالله سبحانه هو المحور الرئيسي الذي تدور حوله أفلاك الإصلاح التي يدعو إليها الإسلام في قرآنه المجيد.. فالدين الإسلامي واحد منذ الأزل، إيمان بالله وإصلاح للعمل.. فالإيمان بالله وحده هو ذروة سنام الإسلام.. {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ} (آل عمران: ١٩٣) إن الإيمان بالله وحده تتبعه الفضائل الأخلاقية التي تضبط سلوك الفرد والمجتمع.. كما أن التوحيد هو الذي حرر العقل من أثار العبودية والشرك وكافة شرور القهر والظلم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتعتبر الدعوة إلي التوحيد بالله وعدم الشرك هي صلب ودعامة التغيير على المستوى الإنساني والاجتماعي بدءاً من تغيير فساد الفكر والعقيدة بالشرك والكفر إلى فساد العلاقات بين الناس بسبب شرور الظلم والإسترقاق وغياب العدل والحرية وضوابط السلوك والاعتياد على الرذائل التي تدمر العلاقات الاجتماعية وتوقع بين الناس العداوة والبغضاء بالخمر والميسر، علي سبيل المثال لا الحصر.. إن الإيمان بالتوحيد يقترن اشتراطاً بالإيمان بأن مبعوث الرسالة هو خاتم النبيين محمد r .. وأن سنته القولية والفعلية تتكامل مع تعاليم القرآن في شارحة ومفصلة خاصة في شئون المعاملات التي أستند إليها في تأسيس الفقه ثم أصوله بعد ذلك الذي كان حجر الزاوية فيما بعد لتأسيس قواعد المنهج العلمي الذي شيدت به الحضارة الإسلامية في علومها وتراثها وآدابها.. أي أن فضل القرآن والسنة الشارحة له لم يقتصر على تغيير نمط العلاقات الاجتماعية في حدود الجزيرة العربية بل أمتد إلى أفاق الزمان والمكان بتغيير أشكال وأنماط المجتمعات التي أنتشر في ربوعها.. وإذا كانت دورة الحضارة الإسلامية قد جري عليها انكسار نسبي فكان بسبب الوهن الذي دب في إرادة وإدارة الأمة لعدم الالتزام بدعامات الإسلام وأولها الضعف الذي طرأ على ركائز التوحيد الخالص، والذي أضعف بدوره العلاقات وزرع بذور الفتن والبغضاء بسبب أطماع الحكم والسلطان.. فقد حدث خلل ما في العلاقة بين الناس وربهم وعدم الوفاء بالعهد مع الله سبحانه {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} (آل عمران: ٧٦).. إن العلاقة بين الله والإنسان علاقة تكليف ومسئولية في المقام الأول، هي مسئولية اجتماعية للإصلاح كلما طرأ ذرات فساد علي المجتمع، ولما كان الإنسان ذاته المكلف بالمسئولية جزء لا يتجزأ من المجتمع فأن أي تقصير في أمانة المسئولية ينعكس فوراً على العلاقات الاجتماعية قد تبدو في أشكال من التفكك أو الفساد أو الإفساد بديلاً عن الإصلاح الذي يرتهن بالتزام الإنسان خاصة المؤمن، بمسئولياته بدءاً من الذود عن دينه والحفاظ على سلامة عقله وحماية نفسه وماله وعرضه ونسله، وبسبب عظم المسئوليات، {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (الأحزاب: ٧٢)... وكثير ما يئن الإنسان من حملها على ظهره ويملأه التقصير وارتكاب الذنوب إلا أن رحمة الله تعالي وسعت كل شيء..فهو غافر الذنب وقابل التوب..

في بناء المجتمع والعلاقة بالبيئة: -

سكان المجتمع هم قاعدته الذي يشكل بها في قري وحضر ورحال بادية، ودول وممالك وإمبراطوريات ويتأثر مستوي المجتمع طبقاً لندرة أو وفرة الموارد طبيعية كانت أو بشرية..

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويخصص القرآن الكريم سورة النساء كاملة عن العلاقات الاجتماعية في الأمة وضرورة إحكامها وتسديدها.. ويعلي الله تبارك وتعالي من شأن قيمة الرحمة للربط بين وشائج المجتمع {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء.} (النساء: ١) فبالرغم من تباين الأنواع والأجناس والألوان إلا أن أصلهم واحد في دائرة واسعة تشمل كل البشر فالقرابة الإنسانية تجمعهم.. فالرحمة تجمعهم والعداوة تفرقهم، وأبسط الأمور للتقارب علاقة التحية اليومية، {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا..} (النساء: ٨٦) ولا يقتصر التسديد بين الناس على ذوي القربى فقط بل يتعدى إلي أهل الجوار وأبناء السبيل {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ}.. (النساء: ٣٦)..

ولا يقتصر الأمر علي ذلك فقط بل تتسع دائرة توثيق العلاقات الاجتماعية على من ينتمون إلى نفس العقيدة على قاعدة الأخوة في الله فهي أكثر ارتقاء من رابطة الدم والعصبية، حيث يكون الاحتكام في هذه الرابطة إلى ميثاق الارتباط بالالتزام {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} (المؤمنون: ٥١-٥٢) ثم كانت أفضل النعم على المؤمنين " وأذكروا نعمة الله بتعاليم القرآن والسنة. لقد وسع القرآن الكريم شمل أخوة البشر عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً.....

ويعتمد بناء وارتقاء المجتمع علي حسن صداقته مع البيئة البرية والمائية وتطهيرهما من كل تلوث أو خبث وتستمد قيم هذه الصداقة من حسن توظيف واستثمار موارد البيئة وهذا في حد ذاته جزء لا ينفصل عن منظومة التنمية والعمران فالإحسان إلي البيئة فصل لا يستهان به من مفهم العبادة والتقرب إلي الله لأن إماطة الأذى عن الطريق على سبيل المثال شعبة من شعب الإيمان..

في المعرفة والعلم:-

إن العلاقة بالمعرفة والعلم علاقة إيجابية.. القرآن الكريم ذاخر بالعديد من محكم الآيات التي تعلي من شأن التفكير والعقل بدءاً من آية اقرأ في سورة العلق إلي أية {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} (الزمر: ٩)، والآيات المنتهية بألا يعقلون وآية {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (فصلت: ٥٣) فالتفكير الموضوعي وإعمال العقل واستثمار قدراته وملكاته فرائض دينية للتدبر في خلق وملكوت الله ولاكتشاف السنن الكونية التي بها نضبط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مسار العمران والتنمية علي أسس علمية لا عشوائية.. وأن الحفاظ على سلامة العقل هو البوابة الرئيسية لمختلف مقاصد الشريعة التي يتصدرها الحفاظ على الدين النفس والمال والعرض والنسل، فبدون سلامة العقل لن نصل إلي فهم الدين والقدرة على حماية الأعراض والأنفس والأموال. فإذا أنتفت سلامة العقل أنتفت المسئولية والمحاسبة على الأعمال والتصرفات "رفع القلم عن ثلاث الصغير حتى يبلغ والنائم حتى يستيقظ والمجنون حتى يبرأ" ومن ثم فإن افتعال تغييب العقل السليم بتعاطي الخمور أو المخدرات هو تعمد آثم للتحلل من المسئولية، وحكمة التحريم شديدة الوضوح لأن تعاطي أو إدمان هذه المواد يقطع أوصال علاقات العباد وخالقهم وبينهم وبين ذويهم وأقرانهم وبخاصة أسرهم فيوقع بينهم العداوة والبغضاء، مما يضاعف التكلفة الصحية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية على مستوي الدخل القومي فهذه الآفات الاجتماعية تأكل حصاد التنمية والعمران أولاً بأول إذ تشكل خسائر بمليارات الدولارات. يفوق أية مكاسب للتصدير أو الاستيراد..

ومن ثم فإن الوعي العقلي والفكري شرط وجوبي لاستيعاب العلم وضروب المعرفة بكافة أشكالها الطبيعية والإنسانية. ويقترن الاحتكام إلى العقل بالقيم الفكرية والأخلاقية. ويعتبر ذلك الأساس البنائي لقيام لحضارات وارتقائها فيوم أن التزمت الأمة الإسلامية بالقواعد المنهجية من الكتاب والسنة وأصول المنطق والتفكير الموضوعي السديد ارتفعت قامة الحضارة الإسلامية وسبقت مثيلاتها في زمانها. ويوم تهاونت الأمة في أصول عقائدها وتفكك تماسكها هبط المنحنى البياني الحضاري وتخلفت عن مثيلاتها المواكبة لها في الزمن وتراكمت عليها ديون تقصيرها في شئون الالتزام ألعقيدي والعلمي والفكري، وهي الآن مازالت تدفع ثمن ذلك غالياً بدليل إستقواء أبناء الحضارة الغربية المعاصرة عليها بسبب تقدمها العلمي والتكنولوجي..

في الاقتصاد والمنظومة الإنتاجية والاستهلاكية: - التزام الأمة الإسلامية بالقواعد المنهاجية

من نافلة القول أن المنظومة الإنتاجية لأي شعب من الشعوب توجه مبادئ وفلسفات وعقائد مذهبية تعالج قضايا ملكية وسائل الإنتاج وأساليب الاستهلاك مما يرتبط بالضرورة بنوعية أو أساليب الحياة التي يستحسنها أناس هذه الشعوب.. وباختلاف وتباين هذه الفلسفات حول ملكية وسائل الإنتاج وأسبقية الفرد أو الجماعة لتحقيق مصالح كل منهما وفضل ذلك على النجاح أو الفشل في الإنجازات الاقتصادية، ولارتباط الاقتصاد بالسياسية، أشتعل الصراع في داخل المجتمعات وخارجها بين دول متباينة النظم الاقتصادية كل منها يريد الهيمنة على مصالح الآخر.. مما أدى في كثير من الحالات إلى نشوب النزاع المسلح وتهديد السلام العالمي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد لا تسمح المساحة المحدودة الاستغراق في مثل هذه القضايا التي عولجت بعشرات الألوف من الكتب والمقالات. ومن ثم فأن الذي يهمنا في المنظور الإسلامي لقضايا الاقتصاد والمال أن القرآن الكريم وضع مهديات عامة حول حرية التملك وتحريم الاستغلال والربا والاحتكار والواجبات والمسئوليات التي تفرض على القادرين والأغنياء غير القادرين، وحقهم من فريضة الزكاة وأموال البر والصدقات وحبس الأموال والتركات في نظم الأوقاف، مما يحقق التوازن بين الفئات والطبقات الاجتماعية تجنباً للتورط في صراعات طبقية إذ لم تراع إتباع هذه المهديات النابعة من الكتاب والسنة ونعود ونذكر أن نموذج أمور الحياتين الاقتصادية والسياسية.

إن التوجه الإسلامي إزاء الإنتاج والاستهلاك توجه متوازن يتسم بالوسطية فلا يغرق في أعماق الترف والمادية الخرساء، لا يغلو في التقشف الأقرب إلى الرهبانية المبتدعة. فلأن يقف الإنسان مصلياً في لباس حسن خير من أن يقف مصلياً في لباس مزري، وتنوه الآية الدالة على نوعية الاستهلاك {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف: ٣٣)، وهذا ما يطلق الترشيد الاستهلاكي الذي يضبط إيقاع الإنتاج وقوانين العرض والطلب. وقد سبق منهج يوسف عليه السلام تابعيه من أقطاب الاقتصاد في إدارته أزمة مجاعة مصر القديمة عندما أنحبس عنها الفيضان لمدة سبع سنوات....

إن تصحيح الوعي الاستهلاكي لهو خير ضمان للتحرر من الأسر الاستهلاكي، وأن ربط ذلك الوعي بعناصر أخلاقية ودينية لهو مختصر الطرق لبلوغ الغاية، لأن السلوك الاستهلاكي إذا كانت تحركه دوافع فطرية أو مكتسبة، إلا أنه يتحكم في ضبطه وترشيده قيم آمن بها الفرد والمجتمع. وأصدق الأمثلة علي ذلك أن ثمة أشخاصاً يستطيعون تعاطي الخمور والمخدرات أو المنشطات، ولكن بسبب مناعة نفسية وروحية وإيماناً بتحريمها أو تجريمها فأنه لا يخطر علي بالهم خاطرة باستعماله والاتجار بها، بينما نجد آخرين غيرهم يفعلون ذلك بقناعة تحركها قيم منفعة شخصية بعيدة كل البعد عن أي ضوابط ذاتية أو اجتماعية أو دينية، مما ترتب عليه وقوع كارثة اجتماعية قومية في المجتمع المصري على سبيل التحديد حيث يستنفذ من دخله القومي مما يتجاوز أربعة أضعاف مدخلان قناة السويس فضلاً عن إهدار الطاقة البشرية لملايين من المتعاطين خاصة بين فئات الشباب.

إن جوهر المشكلة هو المستهلك نفسه أو ذاته التي تحركها دوافعه الفطرية من ناحية وقيم واتجاهات اقتصاديه واجتماعيه وأخلاقية من ناحية أخرى، وبذلك فإن المناعة النفسية والاجتماعية المطلوبة تبدأ بتحصين المواطن في كل مراحل العمر بدءا من طفولتهم وتنشئتهم الاجتماعية في الأسرة والمدرسة واستمراراً في مراحل شبابهم وكهولتهم وشيخوختهم وذلك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بإعمال وتفعيل دور المنظمات الأهلية الدينية والترويحية والرياضية والثقافية، إضافة إلى ذلك دور الإعلام الجماهيري لمناشدة القراء والمستمعين والمشاهدين بإعادة تحصين أنفسهم ضد النهم الاستهلاكي وإكسابهم المناعة الذاتية التي تعتبر جوهر التحرر من الأسر الاستهلاكي، هذا فضلاً عن تدعيم المساندة الاجتماعية التي يجب أن توفرها الأسرة والجيرة ومؤسسات المجتمع المدني والهيئات غير الحكومية.

في السياسة والشريعة والقانون

إن السياسات الاجتماعية والاقتصادية مهما كان نمطها تحتاج بالضرورة إلى الحماية من القوى السياسية. لذلك كان الارتباط وثيقاً بالنظام السياسي السائد. إنما الذي يعنينا هو مد الجسور بين هذه القضايا الشائكة وبين مهديات المفاهيم الاجتماعية الواردة في محكم الكتاب العزيز.

والمجتمع الكبير أو الأمة يلزمها الحماية لاحتمالات العدوان عليها ففرض الله القتال **{**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**}** (البقرة: ٢٦١) وهذه الوسيلة الملائمة للدفاع عن المجتمع، فليست هي حرب عدوانية فهي من أجل سلام الأمة دون مبادرة منها لتكريس الاعتداء **{**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**}** (البقرة: ١٩٠) والجهاد عقد بين الله والعباد **{**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**}** (التوبة: ١٢١). كما عرج القران على العلاقات بين المسلمين عند الأزمات والشدائد كما حدث في موقعة احد واستجابته للرسول من بعد صدمة الخسارة في الجولة الأولى للموقعة **{**الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**}** (آل عمران: ١٧٢).

واللافت للنظر إزاء الاستحواذ على السلطة أو الملك إن ماله بيد الله سبحانه وتعالى مثله مثل الرزق بالمال والبنون **{**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}** (آل عمران: ٢٦) وثمة فرق إن إيتاء الملك قد يكون بيسر وسهولة أما نزع الملك فهي عملية معقدة لتثبيت الحاكم بعزة ملكه الذي لا يفرط فيه بسهولة.

والشريعة الإسلامية هي الضابطة لضروب السلوك الاجتماعي، والإيقاع المتوازن لمسار الأمة الإسلامية، وهي من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضر حسب ما إفادة "جوزيف شاخت" حول القانون والدولة في كتابه التصنيفي تراث الإسلام، وتأكيده بأن الشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً واضحاً عن جميع أشكال القانون وأن الشريعة هي جملة الأوامر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها وهى تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية (بالمعنى المحدود) وعلى تفاصيل لآداب الطهارة وصور التحية وآداب الأكل وعيادة المرضى والشريعة الإسلامية هي أبرز ما يميز أسلوب الحياة الإسلامية، وهى لب الإسلام ولبابه.

وبالرغم من أن التشريع الإسلامي قانون ديني فانه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأي وجه من الوجوه. فهو لم ينشأ من عملية وحي متواصل فوق العقل، وإنما نشأ التشريع الإسلامي من منهج عقلاني في فهم النصوص وتفسيرها ومن هنا اكتسب مظهراً عقلياً مدرسياً. والتشريع الإسلامي ذو منهج منظم وهو يؤلف مذهباً متماساً ونظمه المتعددة مترابطة بعضها مع بعض. فالجانب الأكبر من.

- يتكامل تأثير الدوافع والاحتياجات الفطرية للإنسان، مع السنن والقوانين الاجتماعية والشرائع السماوية في منظومة من العلاقات والتفاعلات الاجتماعية تنشأ بين أعضاء وحدة أساسية بشرية.
- تقوم الوجهة الاجتماعية للأسرة على أساس رابطة زوجية يعترف بها المجتمع بنشأة واستمرار العلاقة الجنسية بين الزوجين وما يترتب عليها من إنجاب الأطفال يكتسبون شرعية قانونية بسبب إقرار المجتمع لهذه العلاقة التي تجعل من الزوجين أقارب بالضرورة، وتمتد هذه القرابة إلى حلقة واسعة من الأقارب كالآباء والإخوة والأخوات وآخرين لهم صلات دمويه وعاصبة بهم، ويصبح هؤلاء أقارب الأسرة وتختلف حقوقهم ومسئولياتهم حسب درجة القرابة للزوجين وذلك مثل الأجداد والأعمام والأخوال... الخ
- إن الحياة الإنسانية بجلها لا تخضع لعشوائية التطور أو الصدفة بل تسيرها سنن وقوانين مثل تلك التي تسير الوجود الكوني الطبيعي. وإن باد اختلاف مكونات الوجوديين الطبيعي والإنساني إلا إن قصة الخلق الرباني التي لهما تجمعهما في إطار واحد.
- والأسرة هي المحور الأساسي للحياة الإنسانية، فبدونها لا تستقيم الحياة الاجتماعية وهى أشبه ببوتقة يتم فيها التفاعل بين الفكر والدين وأساليب التنشئة والثقافة والتقاليد والأعراف والآداب والقيم وأنماط السلوك الإنتاجية والاستهلاكية ومشاعر المودة والصحبة في العلاقات الزوجية ووشائج القرابة.
- ومن ثم فأن الأسرة كمنظومة إنسانية واجتماعية لها مكانتها منذ بدء الخليقة حيث تم تكليف الإنسان بحمل أمانة الدعوة إلى عبادة الخالق والامتثال لمهمة الاستخلاف لاعمار الكون الطبيعي والاجتماعي.
- ولم يدع الله سبحانه وتعالى الإنسان للاعتماد على ذاكرته التاريخية للالتزام بالوحدانية والبعد عن الشرك والكفر بل حصنه منذ خلقه بفطرة الإيمان به وبعث الرسل والأنبياء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والمصلحين لإعادته لواحة الإيمان به كلما أنسته الشياطين أو ضل الطريق حيث ينحرف البشر في مسارهم ويخضعون لأهوائهم وغرائزهم فيزاد الضلال وينتشر الفساد والإفساد. ويطول ذلك حياة الأسرة فتهتز أركانها وتتعرض للتفكك والانهيار، وإذا حدث ذلك فسدت العلاقة بين الأزواج وذهبت الرحمة بين الأبناء وانقضى بر الوالدين.

- فأسرة في عرف الإسلام وتعاليمه. هي التي لا تشمل الزوجين فقط ولا الزوجين والأولاد فقط بل تشمل القرابة كلها، فاركان الأسرة ومقوماتها البنائية، زوجان وأولاد وذو القربى.
- ولم يحظ نظام اجتماعي بالعناية والتفصيل في القران الكريم مثلما حظيت به الأسرة. فقد بينت الزكاة إجمالا "واتوا الزكاة" والصلاة بينت أيضا إجمالا "وأقيما الصلاة" أما الأسرة فقد بين القران تفصيل إنشاء الزواج ومتى يكون الطلاق والعلاقة بين الزوجين والعلاقة بين الأبناء وإبائهم، والأبناء بعضهم ببعض، وبين العلاقة بين القرابة جميعها ثم بين نظم الاقتصاد والتعاون في الأسرة.
- لقد ارتكز الإسلام إلى ثلاث قيم في العلاقات الأسرية أولهما قيمة المودة " وجعل بينكم مودة ورحمة " وثانيهما قيمه التعاون المتبادل بالرعاية "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" وثالثها قيمة العدالة في الحقوق والواجبات، وللرجال درجة فأنها تكليف بالرعاية، فليست الدرجة حقاً مجرداً إنما هي حق مرتبط بواجب.
- إن بر الوالدين ركيزة ونواة للقيم الأخلاقية لنظام الأسرة الاجتماعي الذي يعمل على استقرارها وتماسكها وتواصل الأجيال في نسق القرابة الممتد ودائرة المجتمع الأوسع، فهو مؤشر للرقي الاجتماعي والحضاري.
- إن بر الوالدين هو ما يجب على الوالد لولده، وما يجب على الولد لوالده. فعلاقة البر تفاعلية متبادلة قاعدتها الحقوق في الأخذ وقمتها المسئولية في العطاء.
- إنه التالي مباشرة بعد التوحيد والالتزام بعبادة الله سبحانه وتعالى بمعناها الشامل للشعائر والمعاملات، ولا ينفي الشرك بالله إعمال هذا البر بل "وصاحبهما بالدنيا معروفا".
- إن عدم الالتزام ببر الوالدين أو العقوق يجلب غضب الله على العاق حتى لو كانت أركان إسلامه كاملة وعبادته مؤداة.
- ويشكل الإنفاق محور الإحسان المتبادل بين الآباء والأبناء، فإذا كان التزام الآباء بالنفقة هو بحكم الفطرة الاجتماعية وأقوال الشرائع، فهي واجبة على الأبناء بحكم العرف والقوانين في حالة عسر الوالدين أو احدهما، بل يرى بعض الفقهاء أنه قد يمتد إلى القرابات المحرمية وغير المحرمية مما يحقق على مستوى المجتمع منظومة التكافل الاجتماعي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- يحقق بر الوالدين أنواعاً شتى من المردود الاجتماعي الـذي يثـري الحيـاة الاجتماعيـة والمستقبل الحضاري للأمة فهو يهدي إلى التماسك والتكامل في محيط الأسـرة، وشـبكة القرابة، والمجتمع المعاصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com